أحسنُ الحديث

١

أحسن الحديث

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾

تفسير موجز لسورة البقرة

العلامة الدكتور

فيصل العوامي

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَة الأُوْلى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلى روح صديق عالم مهذَّب ونقي، طالما حلُمَ بكتابة تفسير لكتاب اللَّه عز وجل، وعمل على ذلك لولا مباغتة الأجل، سماحة العلامة الشيخ إبراهيم الميلاد طيب اللَّه مرقده وحشره مع الصديقين.

مقدمة

ارتأيتُ أن أُقدِّم بتفسير موجز لإيضاحِ اللغة القرآنية في سورة البقرة، وإبرازِ المعاني التي تتضمّنها وتيسيرِها ووضعِها في سياقها، ليكون مدخلًا تمهيديًا للتفسير المفصَّل لهذه السورة، وأصلًا يمكن الرجوع إليه عند مطالعة البحث العلمي الذي يتكفل به المفصَّل، وسيتكرر المنهج نفسه مع بقية سور القرآن الكريم، على أمل أن يوفقني اللَّه سبحانه وتعالى لإتمامهما إنه ولي التوفيق، وصلى اللَّه على نبيه المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطاهرين.

فيصل العوامي
القطيف
٥-١٢-١٤٤١هـ

الحروف المقطَّعة

﴿الم﴾

الظاهر أنّه ليس لفظًا خاصًا وإنّما تركيب لحروف بشكلٍ غير اعتباطي، فهو يشير إلى معانٍ ودلالات لم تفصح عنها الآيات، ولكن نبّه إلى بعضٍ منها النبي صلى الله عليه وآله وعنه أهل بيته عليهم السلام، إمّا تفسيرًا كالذي ورد في شأن هذه الآية من سورة البقرة أنّ معناها: (أنا اللَّه الملك)، والذي ورد في مثلها من سورة آل عمران (أنا اللَّه المجيد)، أو تأويلاً كالذي ورد في خصوص ﴿كهيعص﴾، ولهذا قد يكون كلامنا في المعاني غير المخصوصة لهذه التركيبات ودلالاتها غير الواردة رجمًا بالغيب. مع الأخذ بعين الاعتبار أن المنهج المتَّبَع من قِبَل النبي وأهل بيته عليهم السلام تعليمي لا توقيفي بحسب ما يظهر من تتبع موارده الكثيرة واللَّه سبحانه العالم بحقائق تعاليمه وأحكامه. ولهذا لو استطعنا تفكيك خصائص ذلك المنهج وتطبيقه عمليًا فستكون النتائج أقرب إلى العلم منها إلى الرجم بالغيب.

معايير الإيمان وآثاره

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

الإشارة بـ﴿ذلك﴾ لشيء حاضر وموجود بدل «هذا» يستبطن في اللغة العربية التفخيم والتعظيم.

﴿الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جميع ما فيه يقينيات.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فلأنّه يقيني ويحتوي اليقينيات أصبح هاديًا ومرشدًا للمتقين، وهو يعني أنّ الشكوك لا تزيد الإنسان إلاّ بُعدًا عن الهدى وتوقعه في الفوضى الفكرية.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾.

لا يصبح القرآن هاديًا لشخص ما لم تتوفّر فيه العناصر التالية:

١. الإيمان بالغيب وعدم الاقتصار على البعد المادي.

٢. إقامة الصلاة لا مجرد الإتيان بها، أي الإتيان بها بوجهها الصحيح والتام.
٣. الإنفاق وعدم الأنانية.
٤. الإيمان بجميع الرسالات السماوية.
٥. اليقين بالعالم الأخروي وهو فردٌ من الغيبيات، وتم التأكيد عليه بالرغم من ذكر الغيبيات في الأول لأهمّيته.

ومن كان القرآن هاديًا له فإنّ نتيجته الفلاح وهو النجاح الدنيوي والأخروي.

خداع الذات والمجتمع

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿سواء﴾: اسم بمعنى الاستواء وهو خبر إنّ مرفوع، ويفيد أن لا فرق في الحالتين.

﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾: أي المصرّون على الكفر لا مطلق الكافر بدليل إيمان كثير من الكفّار. فأمثال هؤلاء سواء أبلغتهم بأسلوب التخويف أم لم تبلغهم سيستمرون على إصرارهم على الجحود.

ويلاحَظ هنا أن الآية ركَّزتْ على الإنذار ولم تذكر التبشير، ولعله واللَّه العالم أن هؤلاء إذا كانت لغة الإنذار التي فيها تخويف وتقريع لم تنفع معهم، فلا شك أن لغة التبشير معهم لا جدوائية منها.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾

الختم بمعنى الطبع والكتم، أي طبع عليها فأصبحت مكتومة، والختم

لا ينافي الاختيار، لأنّ ذلك ينساق إليه الإنسان باختياره، وهو عبارة عن قانون ينصّ بأنّ من أصرَّ على الكفر ينتهي لهذه النتيجة، فالإصرار في كل شيء -والكفر أحد المصاديق الجليّة- يؤدي إلى تعطّل أحاسيس الإنسان وقوى التمييز عنده فلا يعود قادرًا على التمييز، أي هو أقرب إلى كونه قانونًا تكوينيًّا.

﴿غشاوة﴾: غطاء من غشّاه أي غطّاه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾.

الآيتان السابقتان تشيران إلى الكافر المعلِن للكفر، بينما هذه الآية والآيات التالية تشيران إلى الكافر المضمِر للكفر، فهو في الحقيقة كافر لكنه لأهداف وظروف خاصة يضطر لإخفاء كفره والتظاهر بالإيمان والتسليم بتعاليم الوحي،كالإيمان باللّه ﷻ والاعتقاد بالمعاد.

﴿يخادعون﴾: يظهرون للمسلمين بلطف وتملّق خلاف ما يخفونه مع تبييت المكروه.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ من يتعوّد على خداع الآخرين يصبح الخداع طابعًا لديه شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى ممارسة الخداع مع نفسه من دون أن يشعر.

ولاحظ الفرق هنا بأن المنافقين يخادعون المسلمين، لكنهم لا يخادعون أنفسهم وإنما يخدعونها، فهم يظهرون للمسلمين الايمان مع أنهم

يضمرون الكفر، وهذا الاظهار يكون بأساليب لطيفة فيها الكثير من التملق كي لا تظهر حقيقة سرائرهم، بينما لا يقومون بذلك مع أنفسهم لأنهم يعلمون ما هم عليه من الباطل، وبالتالي لا فائدة ترجى من هذا الأسلوب مع النفس، لكنهم مع الزمن يقعون في شراك الخداع من حيث لا يشعرون، لأن نتائج المخادعة تعود عليهم بشكل تلقائي.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: إشارة إلى أنّ ممارسة الخداع مع الآخرين يصبح طبعًا فيتحوّل إلى حالة مرضية.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾: وهذه الحالة المرضية لا تبقى جامدة على مستوى واحد وإنّما تتعاظم مع الزمن وهو المراد بالزيادة فهي مقتضى قانون تكويني. وذلك ما يستوجب عذابًا موجِعًا وشديدًا، والسبب لا مجرد الإنطواء على مثل هذا المرض، وإنما لأن هذا المرض يصبح برنامجًا عمليًا يجعل الإنسان متمرِّسًا على الكذب، وأحد مصاديقه الكذب في العقائد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

وهذا مصداق للتحوّل إلى خداع الذات، حيث يصل إلى إيهام الإنسان المخادِع نفسه بأنه يقوم بدور الإصلاح بينما هو يمارس الإفساد بلا شعور، وحتى لو نُبِّهَ فإنه لا يتنبَّه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾.

والسفه يعني خفّة العقل والجهالة، ولذلك جاء خلاف العلم. وهذا تجلٍّ لخداع الذات أيضًا، فمن شدة خفة عقولهم لا يصغون للنصيحة التي تدعوهم لمتابعة المؤمنين في إيمانهم، بل تراهم يصفون المؤمنين بالسفهاء والجهلة مع أنهم في الحقيقة هم الجهة الذين لم يؤتوا حظًا من العلم، إلا أن جهلهم مركب، فهم من شدة جهلهم يجهلون أنهم جهلة لا يعلمون.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾: الاستهزاء أحد مظاهر الخداع وهو يأتي في سياق الاستخفاف بالآخرين. وهذا تأكيد على ما جاء في الآية الثامنة والتاسعة، فالمنافقون من شأنهم باستمرار التظاهر بالايمان أمام المؤمنين لإخفاء هويتهم، وإذا انفردوا ببعضهم البعض خصوصًا إذا اجتمعوا من قادتهم وأسيادهم الذين يوجهونهم يصرِّحون بنفاقهم.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾: ليس من صفاته سبحانه الاستهزاء فهو ليس مستهزئًا، ولكن لأنّه سبحانه لا يعاقبهم في الحال وإنّما يتركهم فيظنّون أنّهم غير مكشوفين، لكن سرعان ما يتضح الأمر إمّا دنيًا أو آخرة، وهذا

أشبه بالاستهزاء.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: إشارة إلى القانون التكويني بأنّ الإصرار على الخطأ يتضخّم مع الزمن. والعمه بمعنى عمى القلب.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾.

وهذا يبيّن أثر الإسلام حتى على الكافر والمنافق، فإنّه إذا تظاهر بالإسلام فإنّ مجرد التظاهر يكون له أثر إيجابي لأنّ الإسلام في طبيعته نور، فإعلان الإسلام ولو تظاهرًا يضيء حياة الإنسان وكل ما حوله، لكنّهم لا يستفيدون منه ولذلك يهجرهم فيبقون في ظلام، غير قادرين على سماع الهدى ولا على التبصّر به لإرشاد الآخرين، ولا على رؤية الحقيقة، لذلك لا يستطيعون بسبب إصرارهم الرجوع عن نفاقهم وكفرهم.

والاستيقاد هنا مبالغة في إبقاء النار، ما يعني أنّهم عادةً يتظاهرون بشدّة بالإسلام، لأنّ المخادع لا يكتفي بالتظاهر البسيط، ولذلك فإنّ المبالغة في التظاهر في جميع الأشياء قد تكون إشارة إلى كذب المتظاهر. ولذلك استعملت الآية هنا لفظ الشراء، فهم كان لديهم النور بسبب تظاهرهم بالاسلام، لكنهم باعوه بالوهم وهو الضلالة والحيرة والتخبّط، ما جعل تجارتهم خاسرة وأوقعهم في التيه وإضاعة الهدى.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

﴿صيّب﴾: المطر الغزير.

﴿ظلمات﴾: السحاب.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾: فالإسلام كالمطر الغزير المليء بالخيرات وفيه أصوات هداية عالية ﴿رَعْدٌ﴾ وأنوار مضيئة قوية ﴿بَرْقٌ﴾، لكن المنافق بأسلوبه النفاقي يوقف جميع أحاسيسه كي لا يستفيد من ذلك ظانًّا بأنّ هذا المطر والخير يؤدي به إلى الهلاك وضياع مكاسبه. وكتعبير عن حالة النفاق عند المنافقين إذا أضاء نور الإيمان وظهرت انتصارات المؤمنين يسيرون معهم تظاهرًا وسعيًا لجني الأرباح، فإذا مُني المؤمنون بانتكاسة أو هزيمة قاموا مع الكافرين ضد المؤمنين.

﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: إشارة إلى قوة نور الإيمان وأنّه لم يكن محجوبًا عنهم لكنّهم يتعاملون معه بأساليب كاذبة.

ومع ذلك فإنّ اللّه سبحانه رحمةً بهم يمهلهم لعل فيهم من يرتدع ويهتدي، وإلا فهو قادر على سلبهم كل قواهم السمعية والبصرية، فيجعلهم غير قادرين على سماع الموعظة ورؤية الحقائق.

مقارنة بين الإيمان والكفر

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾.

﴿خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: خلقكم وخلق الذين من قبلكم من الأمم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذ يُرجى من العبادة إذا كانت تامة وحقيقية تحصيل التقوى.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

﴿فراشًا﴾: مبسوطة مهيّأة للاستفادة منها.

﴿بناءً﴾: الظاهر لا تعني فقط السقف الواقي من المخاطر، وإنّما الجانب العلوي بكامله فهو بمثابة المسكن الكبير الذي يحفظ الإنسان

ويصونه، ويؤيِّد ذلك النص في الآية على أن نزول الماء من السماء، وهو المطر الذي ينبت الزرع فيصبح ثمره رزقًا وقوتًا للإنسان. فمن يهيئ الحياة للإنسان بهذا المستوى يستحق أن يُعبَد وحده وأن لا يُشرَك معه سواه خصوصًا إذا كان عن عمد وقصد، لأن الجهل في أكثر الأحيان مغتفَر.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾.

﴿ريب﴾: أدنى مراتب الشك.

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وهو القرآن الذي أنزل على النبي محمد ﷺ بالتدريج. والتحدي هنا في القدرة على صياغة سورة واحدة ترقى إلى الصياغة الإلهية الدقيقة وتحمل المعاني العظيمة التي تحملها سور القرآن الكريم.

﴿شُهَدَاءَكُم﴾: أمثالكم ورفقاؤكم الذين يؤازرونكم بالشهادة بأنّ القرآن ليس من عند اللّه سبحانه إن كنتم صادقين في دعواكم.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

فإذا كان ذلك مستحيلًا فعليكم إذًا أن تخافوا من النار التي ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ لأنّ الإنسان يشتعل فيها ولا تنطفئ النار من داخله فيصبح مثل الجمر المشتعل الذي يزيد من الاشتعال، ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ وبسبب شدّة الاشتعال حتى الأحجار تبقى متقدة فتزيد الاشتعال. فإن هذه النار مخصّصة للكافرين.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾.

﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾: لأنّ ثمار الجنّة تشبه ثمار الدنيا من حيث الاسم ولكنّها تختلف من حيث العظمة والروعة.

﴿وَأُتُوا بِهِ﴾: جاء به الملائكة والولدان والحور لهم.

﴿متشابهًا﴾: لأنّ الثمار كثيرة جدًا والفارق بين أنواعه بسيط جدًا فكأنّه يشبه بعضه بعضًا.

فكل هذا النعيم إنما هو للمؤمن الذي يداوم على الاتيان بالأعمال الحسنة التي تؤدي على المحافظة على صلاح الحياة الفردية والاجتماعية. كما أنه يحبى بالسعادة والهناء فيعيش حياة زوجية مستقرة مع زوجات طاهرات لم يخلقوا إلا له. وشعوره بالخلود يعطيه سكينة دائمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾.

المؤمنون قادرون على إدراك الحقائق الغيبية، فحتى لو كان المثال بسيطًا فإنّهم يدركون ما يتضمّنه من معاني وحقائق، بينما غير المؤمن ليس

قادرًا على ذلك، ولهذا يبقى مشكّكًا فيتيه ويضل، وإنّما أصبح كذلك بسبب فسقه وابتعاده عن الحق. وقد جيء بالبعوضة للتمثيل وتقريب الصورة نظرًا لكونها من المألوف في حياة البشر، وإلا فيوجد الكثير مما هو دونها.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾.

ينقض: يتراجع عن العهد. ولعلّه إشارة إلى التراجع عمّا هو مودع في الفطرة، فإيداعه في الفطرة أشبه بالعهد.

القطع: أهم مصاديقه قطيعة الرحم، فإن اللّه ﷻ أمر بصلتها.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: لأن صلة الرحم نظام اجتماعي، والاخلال به يؤدي إلى فساد الحياة الاجتماعية. وإذا فسدت تتراكم الخسائر وتضيع المكاسب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ لأنّ النطفة والعلقة والمضغة قبل ولوج الروح تكون لا حياة فيها. وبعد ولوج الروح تبدأ الحياة، وبنهاية الحياة يأتي الموت، وبالنشور تعود الحياة مرة أخرى للإنسان، فتؤول أموره إلى اللّه سبحانه. فإذا كان الرجوع إليه سبحانه بعد أن أوجد الإنسان من العدم ورعاه في مسيرته في الوجود مع تقلباتها، فكيف يجحد به البعض.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾.

﴿الأرض﴾: العالم السفلي.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، فالسماء خُلقت بعد العالم السفلي، والاستواء بمعنى القصد، أي قصد إلى خلق السماء بمشيئته.

﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾: فالسماوات مستوية وليست متزعزعة داخليًا ولا مضطربة خارجيًا، كما أنّ شكلها مستقر.

وهذا تتميم لما في الآية السابقة، فإذا كان اللَّه ﷻ هو خالق الإنسان وراعيه، وخالق جميع ما في الأرض له، ومبدع لسائر الوجود، فهو من يجب أن يُعبَد لا سواه.

وقوله سبحانه ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: تأسيس لحكم يفيد حلِّيّة كل ما في الأرض للإنسان، أي كل ما في متناوله وقادر على الحصول عليه سواء من التراب أو الماء أو الفضاء. والأرض هنا لا للحصر وإنما لأنها أجلى المصاديق، ولأنها الأمر المقدور عليه في زمن نزول النص، وإلا فالحكم يشمل ما في العوالم العلويّة فيما لو تمكن الإنسان من السيطرة عليها.

قضية آدم بين التسليم والجحود

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ هذا ليس اعتراضًا وإنّما لمزيد بيان.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ لعلّه إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه أودع العلوم كلّها في قلب الإنسان وعقله، بحيث جعل الإنسان مهيّئًا للإذعان للحق المودع في تلك العلوم، وهو تعبير عن طبيعة الفطرة السليمة، ولذلك إنّما يقوم الأنبياء عليهم السلام بإثارة تلك العلوم المدفونة.

﴿بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ يشير ذلك إلى أنّ هذه الأسماء مخلوقات عاقلة

وليست جمادات، وذلك يعني أنّ الإنسان مزوّد بطاقة علمية هائلة لا يقوى عليها حتى الملائكة بسبب عمقها وسعتها.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: عبّر بالصدق هنا وليس بالعلم لأنّ الملائكة ادّعوا أنّهم الأفضل، فبيّن لهم الباري أنّ الأفضلية إنّما تكون بالعلم، ثم امتحنهم للتدليل على صدق أو عدم صدق دعواهم.

﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾: ومعنى ذلك أنّ الإنسان قادر على التعبير عن تلك المعاني العلمية وترجمتها بالوجه الصحيح المطابق للحقيقة.

وجاء لفظ الإنباء للدلالة على أنّ التعبير عن العلم ينبغي أن يكون على نحو الإخبار عن اللَّه سبحانه لأنّه مطابق للحقيقة، لا تعبيرًا عن الأذواق المجرَّدة والأهواء والميولات.

فصلاح البشرية في العمل طبقًا لما أمر به اللَّه سبحانه لأنّه يلامس الاحتياجات التوعية للإنسان، وأمّا ما يبديه الإنسان من أهواء اعتقادًا منه بحدوائيتها أو يتكتّم عليها بسبب غرابتها واحتمال إنكارها فليس مؤهّلاً للمحافظة على صلاح البشرية ما لم تكن متطابقة مع مراد اللَّه سبحانه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾.

رفضه إنّما كان راجعًا لصفة الكبر وإلاّ لو كان متواضعًا لما رفض، ولذلك التسليم يحتاج إلى تواضع، وهكذا فالكبر إذا تعاظم يؤدي إلى الجحود؟

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾.

﴿رَغَدًا﴾: سعة من أيّ مكانٍ في الجنّة ومن أي شيء. فعندما أمر اللَّه سبحانه آدم بالعيش والاستقرار في الجنة أباح له كل شيء فيها.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وهي شجرة الحنطة، وأشير إليها بـ(هذه) لمزيد بيان، إذ لم تكتفِ الآيات بالتعريف وإنّما أشارت إليها بـ«هذه» كي تكون مُشخَّصَة وتتم الحجّة. والاقتراب منها يعني الأكل لا مجرد القرب المكاني، وبحصوله يتحقق الظلم للنفس لما فيه من تجاوز لأمر اللَّه ﷻ ولو كان على نحو ترك الأَوْلى.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: دفعهما لارتكاب الزلّة والوقوع فيها.

﴿عَنْهَا﴾ فبسبب الزلّة تسبّب في إبعادهما عن الجنّة.

﴿عَدُوٌّ﴾ ليست العداوة طبعًا ولا قانونًا تكوينيًّا حتميًّا، وإنّما تعدد المصالح وتشابكها يولّد العداوة. والهبوط قد يكون من الأعلى إلى الأسفل، وقد يكون هبوطًا معنويًا نظرًا لأن الجنة أرقى. ومع أن اللَّه ﷻ أهبطهما إلى الأرض إلا أنه سبحانه جعل الأرض لهما مهيئة للاستقرار وقابلة للتمتع والاستفادة.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾.

أي علّمه كلمات يرددها ويتوسّل بها لقبول توبته، وهم محمد وآله عليهم السلام كما في الروايات، فلمّا ردّدها تاب اللّه عليه فعلاً، وهو دليل على عظمة هذه الكلمات.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾.

اتّباع الهدى يقي من الوقوع في المخاوف الخارجية المحيطة بالإنسان في جميع مجالات الحياة، ويقي من الأمراض النفسية كالقلق والتشاؤم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾.

ومخالفة طريق الهدى ينحرف بالإنسان إلى الهاوية والفشل الدنيوي والأخروي.

نموذج العناد والتقلّب الفكري

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾.

﴿نِعْمَتِيَ﴾: نعمة النبوّة والملك. ودائمًا الإنسان تلهيه النعم فيتسيّب ولهذا يحتاج إلى تذكير.

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: أي خافوني أنا فقط ولا تخافوا غيري، وذلك مفاد تقديم المفعول.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾.

﴿مُصَدِّقًا﴾: فما جاء في الرسالة الإسلامية مؤكّد بنحو واقعي لجميع ما جاء في التوراة. فتسابقوا في الايمان، أي كونوا أول المؤمنين لا أول الكافرين.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾: أي لا تتظاهروا بالإيمان برسالة السماء للحصول على مصالح فانية لا قيمة لها. ولتكونوا كذلك لابد من استحضار الخوف من اللّه سبحانه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾.

﴿لَا تَلْبِسُوا﴾: ولا تلبسوا الباطل لباس الحق إخفاءً للحق وإظهارًا للباطل عن عمد وقصد، وإلا فقد يشتبه الحكم بعض الأحيان على الإنسان فيخطئ فيه جهلًا والجهل مغتفَر إذا كان عن قصور خصوصًا.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أدّوا الصلاة بتمام شروطها، لأن الإقامة لا تعني مطلق الإتيان بالشيء وإنما الإتيان به بكامل شروطه بحيث يصبح قائمًا متماسكًا لا اعوجاج فيه ولا تمايل. وإيتاء الزكاة بمعنى إيصالها وتسليمها للمستحقين لا مجرد إخراجها. ثم ممارسة العبادة صفًا واحدًا مع المتعبدين لا بصورة انفرادية منعزلة، لما في ذلك من مظهر إيماني يبعث على الهيبة ويشجع على الملازمة في خط الإيمان. وإنما خُصَّ الركوع بالذكر لأنه من أجلى مصاديق الخضوع للَّه سبحانه.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾.

﴿بِالْبِرِّ﴾: الدين وقيم السماء.

فليس مجرد التظاهر بالمظاهر الدينية ينبئ عن صلاح الإنسان فالإنسان قد يخدع نفسه بذلك وقد ينخدع به الناس، وذلك خلاف العقل.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾.

فالقيام بالواجبات الدينية والوظائف الحياتية يتطلب طاقة من الصبر، والصيام مظهر من مظاهر الصبر ولذلك فسَّرتْه الروايات به. وكذلك المحافظة على العبادة وعلى رأسها الصلاة تحتاج إلى همة مضاعفة، لذلك ينبغي للإنسان الاستعانة بغيره وإعانتهم، كي يكون الأداء مثمرًا بالنسبة للجميع. وَإِنَّ الاستعانة في هذين الأمرين لَكَبِيرَةٌ لا يقوى عليها إلا صنف خاص من الناس وهم الخاشعون، وقد يراد بقوله سبحانه ﴿وإِنَّها﴾ الصلاة فهي كبيرة معنويًا فلا يدرك معانيها العميقة ولا يحصل على ثمارها إلاّ من جاء بها بخشوعٍ تام.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾.

صفات الخاشع اليقين بلقاء اللَّه سبحانه والعودة إليه، فالظن هنا بمعنى اليقين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾.

وإنما يمنّ اللَّه سبحانه على عباده ليذكّرهم بعظمة نعمه، لما في ذلك من أثر إيجابي على حياتهم، لا لأنه محتاج لإقرارهم، وقد أنعم جل شأنه على بين إسرائيل بنعم كثيرة كالنجاة من فرعون، والمن والسلوى، وغير ذلك، كما أنه جعل لهم ميزات إذا استفادوا منها تفوقوا على سائر المجتمعات السابقين

لهم والمعاصرين، فالمراد بالْعَالَمِينَ الذين عاصروهم والذين سبقوهم، ومن هذه الميزات مثلًا كونهم من ذراري الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾.

يجب على كل إنسان أن يحذر ويؤهِّل نفسه ليوم الحساب الذي يحاسَب فيه بمفرده، ويكافأ على عمله هو لا على عمل غيره، ولا يُقبل منه توسّط، ولا يُؤخذ منه شيء يعادل الجرم والذنب الذي ارتكبه، ولا يمكن لأي جهة أن تقدم له المعونة والنصر.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يظلمونكم ويطلبوكم إلى سوء العذاب.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: يبقون نساءكم أحياءً.

وذلك ابتلاء من اللَّه عزّ وجل لهم بسبب ما اقترفوه من ذنوب قبل ذلك، فبسبب أخطاءهم تسلّط عليهم فرعون وذلك مقتضى السنّة الإلهية.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)﴾.

﴿فَرَقْنَا﴾: حوّلنا الماء إلى فرق متباعدة بعد أن كان موجًا متصلاً. وكان

ذلك سببًا لنجاتكم وهلاك قوم فرعون بالغرق أمام أعينكم.

﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾: أتباع فرعون.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: قد يكون لهذا العدد أثر في ترسيخ العلاقة مع اللَّه سبحانه وتقوية الاستعداد لتلقّي العلم الإلهي. وكانت هذه الليالي شهر ذي القعدة وعشرة ذي الحجة. وفي فترة غياب نبي اللَّه موسى عليه السلام حصلت مشكلة عبادة العجل عند بني إسرائيل، وسيأتي الإشارة إليها في الآية ٩٢.

﴿مِن بَعْدِهِ﴾: القائد صاحب الكاريزما له أثر في ثبات المجتمع في المجال الفكري وغيره، ولهذا فإنّ غيابه يخلق فراغًا يصعب سدّه، وذلك يبيّن أهمية الحضور الاجتماعي للقائد.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾.

بالرغم من عظمة الخطيئة إلاّ أنّ اللَّه سبحانه عفا وتجاوز وذلك دليل عظمة الرحمة. وقد شملتهم الرحمة رجاء أن يدركوا عظمة النعمة فيشكروا اللَّه عز وجل.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾.

﴿الْكِتَابَ﴾: القيم والتشريعات، وَالْفُرْقَانَ: الأحكام والقوانين، التي

أنزلت على موسى عليه السلام وسُلِّمَتْ له رجاء أن تكون سببًا لهدايتكم، لما فيها الإرشادات القويمة وما تتضمنه من المصالح العظيمة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾.

﴿بَارِئِكُمْ﴾: البارئ هو الخالق، أي خالق الخلق مع كون ذلك الخلق بريئًا من الاضطراب والتفاوت وعدم التناسق.

﴿فَاقْتُلُوا﴾: ظاهرها القتل، وذكرته بعض الأخبار عند المسلمين كافّة، نظرًا لأنّ الذنب عظيم وهو استبدال عبادة اللَّه ﷻ بعبادة مجسَّم لعجل صنعوه بأيديهم كما سيأتي ذكره في الآية ٩٢، وأراد الباري ﷻ أن يبيّن لهم عظمة مثل هذا الذنب وخطورته فأمرهم بقتل بعضهم بعضًا، ويمكن أن تكون مقدمات القتل قد حصلت فعلاً كحمل السلاح والاستعداد للقتل، لكن اللَّه سبحانه تاب عليهم قبل التنفيذ، بدليل قوله سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بعد قوله ﴿فَاقْتُلُوا﴾ من دون إشارة إلى القتل فعلاً، وقيل المقصود فأنهكوا أنفسكم بالعبادة، ولا مانع من الجمع.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥)﴾.

﴿جَهْرَةً﴾: إذ من شأن ضعاف الإيمان التوسل بالماديات فقط ومحاولة الاحتجاج بها.

﴿الصَّاعِقَةُ﴾: جاءتهم صاعقة فأخذتهم بأجمعهم، أي أحرقتهم فماتوا جميعًا، وكان ذلك بمرأى ومسمع منهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾: ثم منَّ اللَّه ﷻ عليهم بإعادتهم للحياة مرةً أخرى لعلّهم يتعظون ويدركون عظمة النعم الإلهية فيشكرون اللَّه ﷻ على ما آتاهم منها.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

﴿وَظَلَّلْنَا﴾: أظلّهم اللَّه بالسحاب حفاظًا عليهم من حر الشمس عندما كانوا في الصحراء، و﴿الْمَنَّ﴾ هو الترنجبين ويُقال إنّها مادة حلوة مثل الثلج تنزل بين الطلوعين، و﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر السمّان يأخذون منه ما يشاؤون. وعندما أنزل اللَّه سبحانه عليهم هذه النعم لم يختر لهم شيئًا معيبًا ولم يمنعهم من الاستفادة منه، بل أنزل عليهم الطيبات وروائع الخيرات وأمرهم بالانتفاع بها، إلا أنهم مع ذلك عصوا، وبعصيانهم لم ينقصوا اللَّه شيئًا وإنما أضاعوا على أنفسهم الثواب والخير.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾.

﴿هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: القرية بلاد الشام، وذلك عندما طلبوا طعامًا آخر أمرهم

الباري بتحرير بلاد الشام من قوم جالوت.

﴿رَغَدًا﴾: كلوا من أي مكان في تلك القرية ومن أي شيء سعةً ووفرة.

﴿سُجَّدًا﴾: في حالة السجود مع المبالغة في السجود تعبيرًا عن الشكر للّه سبحانه.

﴿حِطَّةٌ﴾: أي حُطَّ عنّا ذنوبنا وتجاوز عن تقصيرنا، تمامًا كما في سورة النصر حيث أمر اللّه ﷻ نبيه ﷺ أن يستغفر اللّه سبحانه من أي تقصير عندما نصره على الكافرين وفتح له مكة.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾.

﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: فقالوا حنطة بدل أن يقولوا حِطَّة، أي الحنطة خير لنا وأفضل من الدعاء وطلب العفو.

﴿رِجْزًا﴾: الرجز هو العذاب، وقيل أصابهم الطاعون فمات منهم كثيرون.، والسبب في ذلك فسوقهم وبعدهم من اللّه سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾.

﴿اسْتَسْقَى﴾: طلب السقيا أي طلب الماء من اللّه ﷻ لأنّهم كانوا في الصحراء.

﴿الْحَجَرَ﴾، ولم يكن لذلك الحجر خصوصية بل كان حجرًا عاديًا من أحجار الصحراء، وذلك دليل على عظمة المعجزة الإلهية. وبمجرد أن ضربها نبي اللَّه موسى بالعصا انبجس منها اثنتا عشرة عينًا، أي صار الماء يسيل منها بشكل خفيف في بداية الأمر، كما جاء في سورة الأعراف ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً﴾، ثم صار الماء يتدفق ويتفجر بقوة، وهو المذكور في هذه الآية.

﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ﴾، بعدد أسباط بني إسرائيل.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: كل سبط منهم أخذ مشربًا خاصًّا له كي لا يحصل التنازع والشجار بينهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: أي تمتعوا بسائر النعم أكلًا وشربًا فلا إثم في ذلك، ولكن لا تتجاوزوا حدود الشرع ولا تعتدوا على بعضكم فيؤدي ذلك إلى اضطراب وفساد حياتكم الاجتماعية.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

﴿طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾: وهو المنّ والسلوى.

﴿بَقْلِهَا﴾، البقل: حشائش معروفة ولكن الظاهر إرادة جميع الخضروات.

﴿وَقِثَّائِهَا﴾: أنواع الخيار.

﴿وَفُومِهَا﴾، الفوم: قيل الثوم وقيل الحنطة.

﴿وَعَدَسِهَا﴾، العدس: حبوب معروفة وربما أريد به هنا جميع الحبوب.

﴿أَدْنَى﴾: بالنسبة لهم ذلك الزمان كان المنّ والسلوى أكثر خيرًا وفائدةً من الأمور الأخرى المذكورة، أولاً لأنّه عطاء من اللَّه سبحانه، وثانيًا لتناسبه مع ظروفهم الصحّية، ولا يلزم كونه كذلك اليوم بسبب اختلاف الظروف.

﴿مِصْرًا﴾: أي قرية من القرى الموجودة في التيه.

﴿الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾: فلأنّهم عصوا اللَّه سبحانه وقعوا في الذلّة، أي أصبحوا أذلاّء أمام الشعوب الأخرى، وأصبحت الذلّة كأنّها طبعٌ لهم يُعرفون به، والمسكنة الحاجة والفقر.

﴿وَبَاءُوا﴾: أصبحوا مستحقين للغضب الإلهي، وأسباب استحقاقهم الغضب:

١. الكفر بآيات اللَّه التي رأوها رأي العين.
٢. والاعتداء على المصلحين.
٣. العصيان بمخالفة القيم والتشريعات.
٤. الاعتداء على حقوق الآخرين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: كانوا من أهل الكتاب ثم صبأوا أي خرجوا عن دين

أهل الكتاب ولكنّهم ما زالوا يُعدّون أهل كتاب، وهم غير الصابئة الموجودون في هذه العصور.

﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾: أي آمنوا باللَّه إيمانًا تامًا بما في ذلك الإقرار بنبّوة النبي ﷺ.

﴿وَلَا خَوْفٌ﴾: فلا يخشى عليهم مستقبلاً من شيء.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ولا يصابوا بأمراض القلب كالحزن والقلق والتشاؤم، وهذا من آثار الإيمان.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾.

﴿الطُّورَ﴾: أخذ اللَّه منهم عهدًا غليظًا وشديد التوثيق عبر نبي اللَّه موسى عليه السلام أن يعملوا ويلتزموا بالتوراة وما فيها، ثم رفع فوقهم جبل طور سيناء كآية بيّنة وهدّدهم بإسقاطه عليهم إن لم يؤمنوا، وذلك لمزيد تأكيد فقط وإتمامٌ للحجة، وإلاّ فإنّ اللَّه سبحانه لا يفرض دينه بالقوة على أحدٍ من خلقه.

﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجد.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: أي لا تنسوا ما في التوراة من قيم وذلك بذكره وتداوله الدائم فيما بينكم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾.

بالرغم من عظمة النعم التي أنعم اللَّه ﷻ عليهم بها، ووضوح الآيات

وبيان الحجج التي تفضل اللَّه ﷻ عليهم بها، إلا أنهم تولوا وابتعدوا عن قيم التوراة وتعاليمها. ومع ذلك تفضّل اللَّه ﷻ عليهم بعفوه وفيض نعمه ووسعهم برحمته وفتح لهم مجالًا جديدًا للعودة إلى الدين ففيه كل الربح والخير، ولولا أن اللَّه سبحانه منَّ عليهم بذلك فقدوا كل شيء وخسروا دنيًا وآخره. وما ذلك إلا مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية الواسعة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾.

بعض من بني إسرائيل نُهوا عن الصيد يوم السبت، إمّا امتحانًا لهم لإظهار مستوى طاعتهم، أو لمصلحة تُرجى كأن يكون ذلك أنفع لهم لما له من آثار طبيعية حميدة على الحيوانات البحرية آنئذٍ، لكنّهم احتالوا فصاروا ينصبون الشباك يوم السبت ويجمعون الأسماك يوم الأحد، وهو تحايل لا أساس له من شرع، فمسخهم اللَّه قردةً وطردهم من رحمته سبحانه.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾.

﴿نَكَالًا﴾: عبرة، أي جعلنا العقوبة تلك عبرةً تمنع غيرهم من العصيان ويتعظ بها الذين يخافون اللَّه جل شأنه. وما بين يديها أي المعاصرون لتلك العقوبة، وما خلفها أي الذين يأتون بعد ذلك.

البقرة: دليل واقعي ويُسْرٌ في الدين

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾.

﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾: لأنّ أحدهم قتل ابن عمّه ثم جاء مع جمع من أبناء عشيرته يشتكون عند نبي اللَّه موسى عليه السلام مطالبين بالكشف عن القاتل، فأمرهم النبي بذبح بقرة وضرب القتيل بشيء منها لتعود له الحياة ويخبر بمن قتله.

﴿هُزُوًا﴾: مهزوًّا بنا، أو تجعلنا الهَزْوَ نفسَه وذلك تعظيمًا للاستهزاء.

﴿الْجَاهِلِينَ﴾: لأنّ الاستهزاء ضربٌ من الجهل، والذي يستهزئ بالآخرين إنما يعبِّر من مستواه الجاهلي من حيث يشعر أو لا يشعر.

وقد ذُكِرتْ «بقرة» في الآية بصيغة النكرة، وفي ذلك تعبير عن كفاية أي بقرة، إذ لو كانت ثمة شروط خاصة بقبرة بعينها لقالت الآية (البقرة) بصيغة المعرفة، ما يعني أن هذا التكليف كان يسيرًا، شأنه شأن بقية التكاليف الشرعية، والعسر إنما يأتي من سوء فهم الناس وتشديدهم على أنفسهم، كما سنمر على ذلك في الآية الأخيرة من هذه السورة. ولهذا فالمعنيون من بني

إسرائيل في هذه الآية هم الذين شددوا على أنفسهم بكثرة السؤال.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)﴾.

﴿مَا هِيَ﴾: ما هي صفاتها؟

﴿لَّا فَارِضٌ﴾: لا كبيرة ولا صغيرة وإنّما متوسطة العمر. ولو أنهم اختاروا أي بقرة متوسطة العمر لأجزأتهم، ولهذا قالت الآية ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، لكنهم ألحوا بالسؤال عن صفات أخرى لم تكن مطلوبة من رأس كالسؤال عن اللون.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾.

﴿فَاقِعٌ﴾: أي صفرة شديدة ذات جمال، وربما يشير ذلك إلى أنّ اللون الأصفر في حد نفسه له أثر حسن على النفس، ولهذا فإن من ينظر إليها ينتابه شعور بالسرور والبهجة.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾.

مع ذلك بالغوا في التشدّد لدرجة أنهم سألوا عن صفات أخرى من دون تحديد لجهة السؤال، وهو المستفاد من قول الآية على لسانهم ﴿مَا

﴿هِيَ﴾: أي نريد صفات إضافية.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾.

﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: أي غير مُذلَّلة بإثارة الأرض وسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: سليمة من العيوب.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: خالية من أي لونٍ آخر غير الصفرة.

بعد ذلك توقفوا عن السؤال، والظاهر لأنهم ميّزوها وعرفوا صاحبها، وإلا لواصلوا في طلب المزيد من الصفات، فشروها بثمن مرتفع، وأصل التكليف كان يسيرًا من حيث الصفات ومن حيث القيمة، لكن تشددهم هو الذي أوقعهم في العسر من الجهتين.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾.

﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾: أي كلٌّ كان يدرأ التهمة عن نفسه ويقول قتله شخصٌ آخر غيري.

﴿تَكْتُمُونَ﴾: لأنّ هناك من كان يعلم وأحدهم القاتل ولكنّهم كانوا يخفون ذلك.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

بعد ذبح البقرة أمرهم اللَّه ﷻ بواسطة النبي موسى عليه السلام أن يأخذوا بعضها وهو الذَّنَب ويضربوا القتيل به، ففعلوا ذلك فعادت له الحياة بإذن اللَّه تعالى وأخبر عن قاتله، وتبين أنه ابن عمّ له كان من بين الذين جاءوا يشتكون ويسألون عن القاتل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: كذلك ليست راجعة للضرب بالذَّنَب وإنّما لقدرة اللَّه سبحانه. وهذا شاهد على استعمال الأنبياء عليهم السلام للأدلة الواقعية لتعميق اليقين بالقدرة الإلهية وتعزيز مستوى الإيمان عند الإنسان. وستأتي شواهد أخرى لأنبياء آخرين كخليل اللَّه إبراهيم وعزيز عليهما السلام.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾.

الذي لا يصغي للآيات البيّنات والشواهد الجليّة والأدلة الواقعية ويترفّع عليها لن تجدي معه بقية الأدلة النقلية والعقلية، لهذا يصبح قلبه قاسيًا لا تنفذ إليه المواعظ والتعاليم، وقساوة قلبه تكون إلى درجة تتجاوز قساوة الحجارة والحديد (وهو أشد قسوة من الحجارة)، وبالتالي تنعدم منه الفائدة، فالحجارة مع قساوتها قد تكون فيها فائدة، فبعضها تتفجّر منها الأنهار والمياه

القوية، و «منها» في الآية بمعنى بينها أي ينفذ من بينها، وبعضها يتشقّق فيخرج من بينه ماء قليل، وهذا نوعٌ من الفائدة، لكن القاسي لا فائدة تُرجى منه.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه﴾: ربما إشارة إلى قانون إلهي تكويني لم نطّلع على تفاصيله بعد، أو تمثيل بسقوط الأحجار من الأماكن المرتفعة كالجبال والتي يُلقَى بها من عالٍ بسبب قانون الجاذبية، وهو قانون خاضع للإرادة الإلهية ولا يمكن له التخلّف، وهذا أحد إيحاءات حصول الفعل خشية من اللَّه سبحانه.

بين المصلحة الذاتية والجدل العقيم

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

هل تتمنّون أيها المؤمنون أن يؤمن لكم هؤلاء ويعترفون بنبوّة نبيّكم محمد ﷺ مع ما مضى من تاريخهم في العناد وفي الإصرار على تحريف كلام اللَّه والمبالغة في التحريف، ويُفهم ذلك من قوله سبحانه ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ لأنّه دال على المبالغة، مع أنّهم أدركوا بعقولهم دقائق ما جاء به الوحي، ومع ذلك حرّفوه بعلمٍ وعمدٍ لا اشتباهًا.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾.

ومن صفات هؤلاء المحرِّفين أنهم يتظاهرون بالإيمان عندما يجتمعون بالمسلمين، ثم إذا انفردوا ببعضهم صاروا يوصون بعضهم البعض بأن لا يحدّثوا المسلمين بما أشارت إليه كتبهم كالتوراة والإنجيل من أخبار عن النبي ﷺ وصفاته، كي لا يحتج المسلمون بذلك عليهم أمام اللَّه سبحانه.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾.

مع أن اللَّه سبحانه يعلم كل ما يخفونه على المسلمين مما يتداولونه فيما بينهم، كما يعلم ما يظهرونه. وكأن في استعمال صيغة السؤال الاستنكاري تأكيد على أمثال هؤلاء على دراية كافية أن اللَّه سبحانه عالم بكل شيء، لكنهم مع ذلك يعملون بخلاف ما يعلمون إصرارًا منهم على التمسك بمصالحهم الدنيوية.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾.

فمن أهل الكتاب شريحة أميّة لا تفقه التوراة وإنّما تمنّي نفسها بالنجاة من النار ودخول الجنّة، لكن أمانيّهم هذه في الحقيقة ليست إلاّ شكوكًا وأوهامًا.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

ترهيب باستحقاق أقسى أنواع العذاب مما يخافه الإنسان ويخشاه للذين يتقوّلون على اللَّه ﷻ، ومنهم بعض أهل الكتاب الذين كانوا يزوّرون الأحكام بكتابتها ونسبتها إلى اللَّه سبحانه بلا أي حجة شرعية كالوحي مثلًا.

﴿لِيَشْتَرُوا﴾: ليحصلوا على منافع قليلة لا قيمة لها.

﴿فَوَيْلٌ ... وَوَيْلٌ﴾: هنا ويلان أي عذابان، الأول للكذب على اللَّه

تعالى، والثاني لأن المكاسب التي أخذوها بسبب الكذب هي بنفسها ستصبح في المستقبل وبالاً عليهم.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾.

(٨٠): ومما يدل على تعمدهم الكذب على اللَّه ﷻ، وأن ما يدّعونه ليس من أحكام اللَّه سبحانه وإنما هو مصاغ طبقًا لمصالحهم الخاصة، اعتقادهم باستحقاقهم العذاب ودخول النار لدرجة أنهم أعلنوا ذلك للجميع، وإن كانوا يحسبون خطأً أن مدة العذاب لن تكون إلا قليلة. ولذلك استنكر عليهم الخطاب الإلهي بأن هذا الزعم هل هو عهد وصلكم من اللَّه سبحانه الذي لا ولن يخلف عهده، أم هو مجرد تقوّل كتقوّلكم عليه سبحانه في الأحكام.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾.

ثم تبيّن الآيات فارقًا بين أمثال هؤلاء والآخرين من مرتكبي السيئات، ولماذا وصل بهؤلاء الأمر أن أصروا حتى على الكذب على اللَّه ﷻ في أحكامه مع علمهم باستحقاقهم للعذاب.

فالبعض قد يرتكب السيئات لكنه لا يصر عليها ولا يتمادى فيها فيكون قادرًا على التخلص والفرار منها، لذلك تشملهم الرحمة الإلهية. وأما هذا النموذج من أهل الكتاب ومن يحذو حذوهم فإنهم يسعون في طلب

السيئات والمعاصي باختيار منهم للظفر بها وتحصيلها وهو المراد بالكسب، ثم يصرون عليها ويتمادون فيها فتحيط بهم أي تهيمن وتستولي عليهم، فلا يستطيعون التخلص منها، مما يجعلهم مستحقين للخلود في نار جهنم. وسيأتي في الحديث عن آية الكرسي إشارة تتعلق بالمراد من الصحبة هنا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾.

(٨٢): وعلى العكس من هؤلاء يتوَّج الذين يتميزون بخاصية الإيمان والقيام بالعمل الصالح بالخلود في الجنة. وورود هذه الآية في هذا السياق يمكن أن يُستظهَر منه أن من موارد العمل الصالح الهامة جدًا الدقة في تحري أحكام اللَّه ﷻ وفي التكلم فيها والإخبار بها، وأن ملازمة هذه الدقة إنما تحصل بشرط تحقق الإيمان عند الإنسان، وإلا فإن ضعف الإيمان يمكن أن يكون عاملًا مشجِّعًا على العبث بالأحكام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

كان على رأس التعاليم الدينية التي فرضت على بني إسرائيل بواسطة الأنبياء عليهم السلام ودونت في التوراة: عبادة اللَّه وحده، والإحسان إلى الأبوين، وصلة الأرحام، ورعاية الأيتام، ومساعدة المساكين، وقول الكلام الحسن لجميع الناس سواء مهما اختلفت مكانتهم، وإقامة الصلاة بشروطها التامة،

وإيصال الزكاة إلى المستحقين. فلم يلتزم بذلك إلا عدد قليل، وأما الأكثر فلم يلتزموا. وقالت الآية ﴿مُعْرِضُونَ﴾: أي ابتعدتم وأنتم معرضون بوجوهكم، وهو مبالغةٌ في الابتعاد عن القيم الدينية والعناد.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾.

ومن الأحكام الاجتماعية التي فرضت على بني إسرائيل وجوب حفظ الأنفس وحرمة إزهاقها.

ومنها ما قالت عنه الآية ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾: أي لا يعتدي بعضكم على بعض بالتضييق عليه وطرده للاستيلاء على ممتلكاته، وكأنّما هذه كانت عادة منتشرة عند بني إسرائيل.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: إقرار بالميثاق وهو العهد الشديد مع الشهادة بصحّة ذلك الإقرار.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾.

وبالرغم من وضوح تلك الأحكام الاجتماعية إلا أن بني إسرائيل

خالفوها. تقول الآية ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾: أي يقتل بعضكم بعضًا، وتعتدون على بعضكم بطرده، حيث إنّكم تتعاونون مع بعضكم على بعض آخر منكم بالمعاصي والآثام وهي الأساليب المحرمة، وبأساليب عدوانية للاعتداء عليهم وطردهم من أوطانهم، مع أنّ هذا المطرود من قِبَلِكم لو وقع أسيرًا عند غيركم تتعاونون لجمع فدية لإطلاق سراحه لكونه محسوبًا عليكم من الناحية الدينية، وهذا تناقضٌ في سلوككم، ودليل على عبثكم بالأحكام حيث تأخذون ما تعتقدون أنه يتناسب مع مصالحكم وتتركون غيره.

لكن جزاء من يتبع هذه الطريقة في التعاطي مع الأحكام ليس إِلَّا خِزْيٌ: وهو الذل والمهانة مع الافتضاح في الدنيا، وأما في الآخرة فأشد أنواع العذاب، حيث إن اللَّه سبحانه عالم بمثل هذا النوع من التلاعب والعبث بالقيم ولا يغيب عنه شيء منه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)﴾.

تدلنا هذه الآية على السبب الجذري للخلل الحاصل عند من يتجاوز الأحكام ويتعدى على حقوق الناس وأنفسهم، وهو أنهم قصروا تطلعاتهم على الدنيا وما فيها، وأعرضوا عن الآخرة ونعيمها، فباعوا الثانية بالأولى. وجزاء من يقوم بذلك عذاب دائم في الآخرة لا يفتر ولا ينقطع ولا تقل نسبته ومستواه، وتضيف الآية ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا يجدون لهم نصيرًا يوم القيامة ينجيهم من العذاب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾.

وعلى وجه التحقيق فإن اللَّه سبحانه أنزل الكتاب وهو التوراة على نبيه الكليم موسى عليه السلام، وآتاه إياه إيتاءً، أي كأنما أعطاه إياه وناوله مناولة يدًا بيد، وذلك زيادة تأكيد على الوصول والاستلام.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أي جئنا برسولٍ بقفا رسول، أي رسول بعد رسول، ورسول يتبع آخر.

وهكذا فإن اللَّه ﷻ آتى روحه عيسى عليه السلام التعاليم البينة الواضحة، وأيده وقوّاه بِرُوحِ الْقُدُسِ: وهو قوة معنوية غيبية وأحد مصاديقها جبرئيل عليه السلام.

﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾: فمقياسهم في الاتباع إنّما هو المطابقة مع مصالحهم الذاتية لا القيم والمصالح الدينية.

﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾: الاستكبار مبالغة في التكبّر على القيم والمصلحين، وهذا يعني أنّ الاتباع الصحيح للقيم يفتقر إلى التواضع. وكنتيجة للاستكبار اصرارهم على تكذيب الأنبياء عليهم السلام، بل ترقوا إلى ما هو أخطر من ذلك وهو الاقدام على قتل بعض الأنبياء والرسل.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

غُلْفٌ: مغطّاة بأغفلة، وهي جمع أغلف. وقولهم ذلك كناية عن عدم

الإصغاء إلى النبي ﷺ حين يخاطبهم، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي لا نعي ما تقول يا محمد ﷺ، ولكنّهم في الحقيقة يعون إلاّ أنّ اللّه سبحانه سلب منهم التوفيق وطردهم من رحمته بسبب كفرهم، مع أنّهم قد يؤمنون ببعض القيم التي تتناسب مع مصالحهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾.

فالقرآن يصدّق ما جاء في التوراة. واليهود قبل البعثة كانوا يعدون الكفّار من قريش وغيرهم بالفتح والانتصار عليهم بقيادة النبي القادم ﷺ وسلم، لكن عندما بعث النبي الذي يعرفونه ويبشرون به كفروا به، لذلك استحقوا الطرد من رحمة اللّه سبحانه.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠)﴾.

أي بئس ذلك الشيء الذي لا قيمة له والذي كان سببًا لبيعهم أنفسهم، فالذي يقدّم مصالح دنيوية تافهة على المصالح العليا للدين فكأنّما باع نفسه بأبخس الأثمان لأنّه أسلم نفسه للعذاب، أي يشتري بالكفر باللّه مصالح لا قيمة لها، فالثمن هو الكفر باللّه سبحانه.

﴿بَغْيًا﴾: وسبب هذا الشراء والبيع أنّهم كانوا يبغون ويريدون أن لا

تنزل الرسالة على النبي ﷺ حسدًا منهم إليه ﷺ.

﴿فَبَاءُوا﴾: أي أصبحوا مستحقين لغضب آخر بسبب إنكارهم لنبوة النبي محمد ﷺ، بعد أن شملهم الغضب السابق لعنادهم وعصيانهم في زمان نبي اللَّه موسى عليه السلام وإنكارهم لنبوة نبي اللَّه عيسى عليه السلام.

﴿مُّهِينٌ﴾: فيه إهانة وإذلال لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)﴾.

إذا طُولبوا بالإيمان قالوا نحن نؤمن بالتوراة فقط، ثم يجحدون ويكفرون بما جاء بعد التوراة وهو الإنجيل والقرآن بالرغم من كونهما مصدقيْن ومتطابقيْن في القيم الأساس مع التوراة. ومع أن هذه هي دعواهم إلا أنهم كانوا كاذبين فيها أيضًا، ولهذا احتج اللَّه ﷻ عليهم بأنكم إن كنتم تؤمنون بالتوراة كما تزعمون فلماذا كنتم تقتلون الأنبياء الذين كانوا يدعونكم للالتزام بالتوراة، فهذا تناقض.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾.

سيأتي الكلام مفصَّلاً عن العجل في سورة طه، وملخّصه أن نبي اللَّه موسى عليه السلام لما مضى لميقات ربه في طور سيناء واستخلف أخاه نبي اللَّه

هارون في قومه، عبث رجل اسمه السامري بعقول بني إسرائيل وأقنع كثيرًا منهم بإمكانية تجسيد الإله في شيء مادي، وهذا ما يوحي بضعف ثقافتهم الدينية، ثم طبّق ذلك عمليًا فجمع ذهبًا منهم وأذابه وصنع منه جسدًا على هيئة عجل صغير مجوّف يصدر منه صوت عند هبوب الرياح على تفصيل سيأتي، وقال لهم هذا هو إلهكم وإله نبينكم، فسجد له سبعون ألفًا منهم، وقد ظلموا أنفسهم بذلك خصوصًا أن ذلك حصل منهم بعد أن جاءهم نبي اللَّه موسى عليه السلام بالآيات والأحكام الواضحة والصريحة التي لا تخفى على أحد منهم. والآية التي مررنا عليها المتعلقة بقتلهم أنفسهم راجعة لهذا الموضوع.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾.

سبق بيان صدر هذه الآية عند تفسير الآية ٦٣.

﴿بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾: أي خذوا التعاليم الدينية بجد واسمعوا كلام الأنبياء عليهم السلام بعناية وتسليم، ومع ذلك كابروا وقالوا نحن سمعنا كلام النبي ومع ذلك نحن نعصيه، أي أنّ معصيتهم كانت عن علمٍ وعناد.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾: أي أنّ هناك من أشربهم التمسّك بالعجل، فلم تكن علاقتهم مع العجل علاقة سطحية وإنّما كانوا يحبونه فعلاً ومتمسّكين به، ولعل السبب في ذلك أنّ السامري أقنعهم أنّ ذلك يحقق لهم مصالحهم لذلك تمسّكوا به، وما أصبحوا فعلاً محبين للعجل إلاّ لأنّ قلوبهم خالية من الإيمان فعلاً، مع أنّهم يدّعون الإيمان ولا يقرّون بالكفر، لكن أيّ

إيمانٍ هو الذي يقود لعبادة باطلة كعبادة العجل؟!

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾.

خَالِصَةً: بمعنى إذا كنتم تدّعون فعلًا بأنّ الجنّة لكم فقط فليكن مناكم الموت لتدخلوها، لكنّهم في الحقيقة كانوا يتباهون بذلك أمام الآخرين فقط، ولذلك فإنّهم يخشون من الموت والانتقال للعالم الآخر، ولو كانوا صادقين لتمنّوه.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾.

(٩٥): والذي يكون إنجازه في الحياة مقتصرًا التعدي على الصالحين ومخالفة التشريعات والإلهية وإنكار الأنبياء والرسل عليهم السلام، لن يكون على أهلية ليتمنى الموت والانتقال إلى العالم الآخر، واللّه سبحانه يعلم بالأمنيات الحقيقية لأمثال هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باتباع مثل هذا المنهج الخاطئ.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾.

بل بالعكس فإن حرصهم على الحياة فاق حرص المشركين من القرشيين وغيرهم، ولعل السبب أنّ هؤلاء يعلمون أنّهم على باطل ومع ذلك

يصرّون لا أنّهم يجهلون الحقيقة كبعض المشركين. ولهذا تجد أن الواحد منهم يتمنى أن يطول عمره ويصل ألف سنة، ولكنه حتى لو عمَّر وطال بقاؤه في الدنيا فلن يكون ذلك مانعًا يبعده عن العذاب، لأن اللَّه سبحانه رقيب على العباد ويبصر أعمالهم ولا يخفى عليه شيء أو ينساه جلت عظمته.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾.

كان بعض اليهود يتخذون جبريل عدوًّا لهم، قيل لأنّه نزل بالرسالة من اللَّه سبحانه على نبيٍ لا يتمنونه، وقيل لأنّه دفع نبي اللَّه دانيال عليه السلام عن بخت نصر فأهلك الثاني بني إسرائيل في حادثة سيأتي بيانها في الآية ٢٥٩، ونزل بالشدة على بني إسرائيل وهو ما جاء في رواية في الاحتجاج للطبرسي، لكن معاداة جبرئيل أو أي نبي هي معاداة للَّه سبحانه. كما أن هذه العداوة لا داعي لها ولا تشكِّل عذرًا يحول دون التصديق بالقرآن الكريم، لأن جبرئيل عليه السلام إنما نزَّل القرآن على قلب النبي محمد صلى الله عليه وآله بإذن من اللَّه عزّ وجلّ لا باختيار منه هو، أي جبرئيل، ثم إن ما يتضمنه القرآن من تعاليم وأحكام مصدِّق لجميع ما في الكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل كما مرّ في الآية ٩١، هذا بالاضافة إلى لما فيه من هدى وقيم نورانية تسلك بالإنسان طريقًا لا ضياع فيه، وبشائر لكل مؤمن بما ينتظره من خير في حاضر ومستقبل أيامه في الدنيا والآخرة. فأي داع إذًا للإنكار والتكذيب؟!

والمراد بما بين يديه أي في متناوله ولذلك فهو محيط بكل ما فيه. وسيأتي تفصيل لذلك في الآية الثالثة من سورة آل عمران.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

(٩٨): وهذا يعني أن العداوة للملائكة والرسل مظهر من مظاهر العداوة للَّه ﷻ، فلا يمكن التفكيك بينهما كما قد يتصور بعض أهل الكتاب المعنيين في الآية السابقة، فمن يعاديهم فقد عادى اللَّه سبحانه، ومن عادى اللَّه كان جلت قدرته عدوًا له، وذلك يشير إلى الطرد من رحمته.

ويلاحظ أن الآية بعد أن ذكرت الملائكة كعنوان عام، ذكرت جبريل وميكائيل بنحو خاص، وذلك راجع للسياق، حيث إن الآيات السابقة كانت في معرض الحديث عن عداوة بعض بني إسرائيل لجبريل، لذلك ذكر هنا بخصوصه، وإضافة ميكائيل من جهة كونه قرينًا له في الذكر عادة بصفته أحد أكابر الملائكة الذين ينزلون على الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾.

فآيات اللَّه التي أنزلها على نبيّه محمد صلى الله عليه وآله واضحة بيّنة لا خلل ولا تشوّش فيها، وما يُكفر بها إلاّ المعاند الفاسق وهو الخارج عن جادة الحق والمتمرّد عليها.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾.

ولم تكن خيانة العهود عند بني إسرائيل حالة طارئة، بل أشبه بطابع

دائم، ولذلك كلما عاهدوا نبيًا من الأنبياء عليهم السلام عهدًا وأعطوا كلمةً نبذوها بعد ذلك، والنبذ بمعنى القاء الشيء استهانة به. والفريق ليس فئة قليلة هنا، بل هم فئة كبيرة تعبّر عن أكثر بني إسرائيل، ولهذا أكدت الآية في الذيل بأن أكثر بني اسرائيل في عهود الأنبياء عليهم السلام ما كانوا يؤمنون حقيقةً بالأنبياء ورسالاتهم وإن تظاهروا بخلاف ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾.

وكمثال وشاهد على ذلك الطابع الدائم والممتد عبر الأجيال تكذيبهم لنبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله، مع أن ما جاء به من تعاليم وأحكام مصدِّق ومطابق في الأمور الأساس لما جاءت به كتبهم كالتوراة والإنجيل. وفي ذلك قالت الآية ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾: أي تجاهلوه وتركوه وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون به وكأنّه لا يعنيهم.

لا للوهم بل للإرادة الإلهية

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

﴿لَمَنِ﴾: اللام للتأكيد، ويعني أنّ الذي اشترى السحر، باع قيمه وآخرته بحفنة من السحر.

﴿خَلَاقٍ﴾: نصيب.

﴿مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾: باع نفسه ومصيره الدينوي والأخروي بحفنة من السحر.

بعد موت نبي اللّه سليمان عليه السلام كتب الشياطين السحر ووضعوه تحت كرسيّه، ثم استخرجوه ليوهموا الناس من بني إسرائيل بأنّ هذا النبي عليه السلام

إنّما حكمهم بالسحر لا المعجزة والقدرة الإلهية، فانطلى ذلك على البعض مما تسبب في شيوع وانتشار السحر في بابل، فبعث اللَّه ﷻ ملكين في صورة اثنين من البشر ليعلّما أهل تلك البلاد السحر، لا لنشر السحر والشعوذة وإنما ليتمكنوا من التفريق بين السحر والإرادة الإلهية الحقيقية، فيَدَعون الأول ويتّبعون الثاني، ولذلك كلما علَّما أحدًا شيئًا من السحر نبَّهاه إلى موضع الفتنة في هذا العمل ليكون على بيّنة. ومع ذلك فثمة من أصر على تعلّم السحر واستعماله في موارد الإضرار بالنفس والغير، خصوصًا في شؤون الحياة الزوجية كإحداث الشقاق بين الزوجين والتفريق بينهما.

إلا أن الآية أكَّدتْ على قاعدة هامة وهي أن الأعمال السحرية لا تؤثر في أحد إلا أن يشاء اللَّه سبحانه، ما يعني أن من يتمسك بالحبل الإلهي ويعتمد على اللَّه ﷻ يستطيع التغلب على هذه الأعمال.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

ثم تؤكد هذه الآية الكريمة على المحصِّلة الدنيوية والأخروية لاتباع خيار الإرادة الإلهية، فمن آمن بها واعتمد عليها وتجنب الأعمال السحرية، ولازَمَ التقوى في أي عمل أو إجراء يقوم به فعمل ما ينفع به نفسه والآخرين، سيناله على نحو التأكيد -لأن اللام في قوله سبحانه (لمثوبة) للتوكيد- من اللَّه سبحانه -لا من غيره لأن اعتماده إنما كان على اللَّه فقط- خير، وهو نكرة هنا للتدليل على السعة والوفرة في الدنيا والآخرة. فمن علم بهذه المحصِّلة وعمل طبقًا لأسبابها تفضَّل اللَّه ﷻ عليه بهذا الثواب.

قيم وتعاليم للسلوك الإيماني

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

أي لا تقولوا كما كان اليهود يقولون للنبي، وذلك بهدف التربية للمؤمنين، فقد كان اليهود يقولون ﴿راعنا﴾ أي راعي أحوالنا وهو يعني التلاعب بالقيم من أجلهم وتطويعها بحسب ما تتناسب مع مصالحهم، وهي نوع شتيمة عندهم لأنّها بمعنى (أَسْمَعْتَ لا سَمِعْت)، ولكن قولوا (انظرنا) وتعني تلطّف بنا وخفّف علينا مراعاةً لأحوالنا وظروفنا، ثم اسمعوا كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلّموا به. ويمكن أن نستوحي من ذلك صحة التخفيف في الأحكام والتشريعات إذا كان بهدف المراعاة لتقلبات الظروف والأحوال، ولم يكن بنحو العبث والتلاعب، أي إذا كان بعنوان (انظرنا) لا بعنوان (راعنا). وهو أمر يعطي الفقيه ذائقة تفتح له بابًا لممارسة شيء من المرونة في مجالي الاستنباط الفقهي النظري والإجراء العملي للتشريعات.

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾.

من صور الإنتماء الخاطئ حين يتحوّل إلى عصبية جاهلية، عصبية تعمل على الإستئثار بالمكاسب والانجازات، ما يجعلها مولِّدة للحسد والرغبة في إضعاف الآخرين. وهذا تمامًا ما حصل عند الذين كفروا بنبوة النبي محمد ﷺ، ليس بعض أهل الكتاب فحسب الذين لهم انتماءات عقدية موازية، بل وحتى أمثال مشركي قريش الذين لم تكن لديهم مثل تلك الانتماءات العقدية وإنما كانوا ينطلقون في إنكارهم من منطلقات مصلحية اجتماعية أو اقتصادية وشبههما. فكل من الطرفين تشكلت عنده عصبية خاطئة، ولذلك كان يتمنون أن لا ينزّل اللَّه سبحانه بصورة متتابعة أي خير على المؤمنين ولو من قبيل الثواب أو الوعد بالنصر أو الافصاح عن قضية غيبية وما إلى ذلك. لكن اللَّه سبحانه هو الذي يخص بعض عباده الصالحين برحمته ونعمه لما لديهم من إيمان وتسليم، فعطاؤه وفضله على هؤلاء عظيم.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾.

ما نبدّل من آيةٍ بأيةٍ أخرى، أو نترك من آيةٍ نزلت على الأنبياء السابقين عليهم السلام أو النبي محمد ﷺ حتى يصل الأمر إلى أن ينساها الناس ﴿نُنسِهَا﴾ أي نُنسي الناس إيّاها بسبب بُعد الزمان وعدم تلاؤمها مع الزمن الجديد، إلاّ ونأتِ بخيرٍ منها، وذلك لا يعني التفاوت في الكلام الإلهي،

وإنّما هو بمعنى الأنسب لأهل هذا الزمان تبعًا لظروفهم. وهذا وجه من وجوه القدرة الإلهية، وربما يكون من ظلال هذا الوجه من جهة أن أمر التشريع كله بيده اللَّه سبحانه، فما يشاء أن يجعله تشريعًا يكون كذلك، وما لا يشاء لا يكون، وما يشاء أن يبقيه يبقى، وما يشاء أن يرفعه يُرفَع، فهو جل شأنه من لديه هذه القدرة، ومن جهة أخرى أنه سبحانه هو العارف بما تؤول إليه مصالح العباد وما يصب في نفعهم الدنيوي والأخروي فيشرِّع لهم ما يتناسب مع ذلك، فالقدرة على هذه المعرفة والتشريع طبقًا لها إنما هي لدى اللَّه ﷻ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾.

ثم تبين هذه الآية مرجع تلك القدرة، وهو أن اللَّه سبحانه هو المالك للوجود كله وجميع موارده المادية والمعنوية والاعتبارية، والمالك هو من له حق التصرف في المملوك بجميع أنحاء التصرفات، وليس لأحد مهما كان موقعه أي سلطة أو قدرة على التصرف ما لم يأذن له اللَّه تعالى شأنه، كما ليس لأي أحد مولى يدير أموره ويلي شؤونه ويرعاه، ونصير ينصره ويعينه على التغلب على صعوبات الحياة إلا اللَّه ﷻ. وقوله تعالى في هذه الآية والتي قبلها ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ موجَّه بحسب الظاهر إلى المنكرين والمشككين في مسألة النسخ.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

وهكذا وُجِّه الخطاب الاستنكاري لهم ولكن بصيغة الجمع هنا

حول طرحهم لمثل هذه الأسئلة غير العلمية، وهل أنهم ينوون اتباع منهج المشككين في رسالة نبي اللَّه موسى عليه السلام من قبل، من خلال افتعال الحجج الواهية للتملّص من الالتزام بالتعاليم الدينية، كقولهم لنبيهم أرنا اللَّه جهرةً. فإن من يتبع هذا المنهج الكفري المبني على الجهل والمتوسِّل بالجدل اللاعلمي ويتخلى عن المنهج الإيماني القائم على أساس التسليم المبني على العلم، فلن يهتدي لنتيجة صحيحة بل سيتيه في الظلمات والطرق الخارجة عن الجادة السليمة.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾.

في كثير من الأحيان يكون الإنسان في أعلى درجات الصلاح وفي سعة عظيمة من الخير، وقد يحصل أن يكون هو نفسه غير مدرك لذلك، وربما يكون مدركًا وشاكرًا، وفي الوقت نفسه تكون هناك جهات حاسدة متربصة بهذا الإنسان، ولذلك تحاول أن توحي له بأنه ناقص أو جاهل أو غير موفّق، كي تحوّل في داخله تميّزه إلى ضعف، وإلا في الحقيقة هي تتمنى لو تكون مثله وفي مكانته. فإذا لم تنجح في كسره نفسيًا لا تتراجع عن كيدها وإنما يتحوّل ذلك إلى أمنية لديها وتبقى متربّصة تتمنى لو تنجح خططها في ثنيه عن إيمانه الذي يتميز به والذي هي تتمناه لنفسها في الأصل نظرًا لأنها اكتشفت أنه الحق، وكل ذلك بدافع الحسد.

لكن ما هو الموقف الذي ينبغي اتباعه من قِبَل المسلمين في مثل هذه الحالات ومن أمثال هذه الجهات؟

تقول الآية ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ فمع ما هم عليه من إصرار وعناد لكن لا تأخذوا منهم موقفًا عنفيًا، بل تجاوزوا عنهم بعدم معاقبتهم على أفعالهم واتركوهم واطووا صفحتهم كأنّهم غير موجودين، وذلك يعني نسيان أمرهم إلى أن يأمر اللَّه سبحانه بأمرٍ فيهم وهو قادر على ذلك.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾.

ودائمًا نجد الآيات حين تأمر بخُلِق ما اجتماعيًا أو فرديًا، تؤكد بعده على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما سبق في آيات أخرى، مما يدلل على أثرهما الكبير في تجذير الأخلاق الحسنة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم﴾: لأنّ ما يقدمه الإنسان للآخرين إنّما يقدمه لنفسه لرجوع الأجر والثواب إليه، ولا ينبغي له الشك في ذلك لأن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم ويبصر جميع ما يقدمه الإنسان من عطاء.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾.

بعد الالماح إلى الموقف العلمي والأخلاقي من أمثال أولئك المعاندين، تعود الآيات لذكر بعض سلوكياتهم الخاطئة، ومنها العنصرية التي كانت سببًا لإنكارهم لرسالة النبي ﷺ، ومن مظاهرها تمنّيهم أن تكون الجنة لهم فقط، والظاهر من قوله سبحانه ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أن أصحاب هذه المقوله من النصارى لا من اليهود، لأن عنصرية اليهود تطرد

حتى النصارى لأنها لا تقر بالنبوة للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، بعكس النصارى الذين يقرون بنبوة الكليم موسى عليه السلام وإن كانوا ينكرون على اليهود عدم تسليمهم بنبوة المسيح كما سيظهر في الآية ١١٣، ولهذا لا يتوقع من اليهود الإقرار بدخول النصارى الجنة معهم، إلا أن يكونوا قد قالوا ذلك لدوافع خاصة عندهم كالرغبة في التحزّب ضد المسلمين، أو على سبيل المجاملة.

إلا أن هذه الأمنية مجرد مصادرة لا تستند إلى دليل، ولهذا احتجت عليهم الآية بتقديم برهان يثبت صحة زعمهم إن كانوا فعلًا في صادقين فيه، ولا يستطيعون ذلك.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾.

وهذا لا يعني أن الجنة حكر على أحد، ولا هي محل للمساومات والمحسوبيات، بل أبوابها مفتَّحة لكل أحد إذا جاء بالشروط على وجهها الصحيح، وهي تتركّز في قوله سبحانه ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي أقبل بوجهه نحو الدين مستسلمًا للّه عز وجل ومسلِّمًا بالدين، أي في كمال الطاعة، ثم جاء بالحسنات الفردية والاجتماعية أي سلَّم بالقيم واتّبعها. فمن فعل ذلك فله الأجر والثواب الجزيل عند اللّه عز وجل في الجنة، ويكون في نجاة من جميع عقبات الآخرة المخوفة للعصاة، بل ولا يعتريهم حزن ولا هم ولا غم، وإنما يكونون في أسمى مراتب السعادة.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾.

والعصبية غير الحميدة إذا تعمّقتْ عند أحد فإنها تكون طاردة للجميع، وإن ظهر المصاب بها على خلاف عادته مع فئة أخرى أحيانًا، فذلك إنما يكون لمصلحة طارئة فقط، ولهذا سرعان ما يعود إلى طبيعته، وهذا ما لوحظ عند بعض اليهود والنصارى في عصر النبي الأكرم محمد ﷺ، فالرغم من إظهارهم للتوافق السطحي في بعض الأحيان، إلا أنهم ينجرون لإظهار حقيقة معتقدهم في بعضهم حينًا تلو آخر، فيقول كلٌّ منهم عن الآخر ليس ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: أي ليس له دين، مع أن اليهود والنصارى جميعًا يتلون الكتب السماوية المقدسة التي تنص على نبوة سائر الأنبياء بما فيهم موسى وعيسى عليهما السلام جيمعًا، كما أن تعاليمها متطابقة.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾: والمراد بهم كفّار قريش وأمثالهم، فهم يقولون لبعضهم البعض ويقولون لأهل الكتاب القول نفسه، ما يعني أن القاعدة مضطردة. وذلك يبيّن مستوى الاختلاف والتنازع الداخلي بين الجاحدين لرسالات السماء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: وهل هناك أكثر ظلمًا وعدوانًا من الذين كانت لهم

سوابق في الاعتداء على بيوت اللَّه ﷻ وعلى مرتاديها، فمن يقوم بمثل هذا الفعل هو من أكثر الناس ظلمًا لنفسه وللآخرين. وذلك إشارة إلى ما فعله بعض أهل الكتاب ببعضهم في بعض فترات التاريخ، مما يؤكد على أنهم في نزاع دائم مع بعضهم.

وكدليل واقعي على ذلك التنازع ما فعله نصارى الروم عندما هجموا على بيت المقدس وهدموه للانتقام من أفعال اليهود السابقة. وما كان لهم الحق في القيام بمثل هذا الفعل عند دخول بيوت اللَّه ﷻ، بل كما تقول الآية ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي كان يجب عليهم أن يحترموا بيوت اللَّه ولا يدخلوها إلاّ وهم في حالة خشوع وخوف من اللَّه سبحانه.

ومن يقوم بمثل هذا الفعل فمصيره في الدنيا خِزْيٌ: أي ذل ومهانة مع افتضاح، وأما في الآخرة فعذاب عظيم.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

في هذه الآية التأسيس النظري لما سيأتي قريبًا الحديث عنه في الآيات ١٤٢-١٥٠ حول القبلة الشريفة وتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة. وتقريبه أن اللَّه سبحانه في كثير من الآيات نص على أن له ما في السماوات وما في الأرض، أن مالك للوجود، أما في هذه الآية فنص جلت قدرته على أنه مالك لجهات الوجود جميعها، وهو المراد من المشرق والمغرب، وكل نص له لحاظ خاص، فالنص الأول له لحاظ سبق بيان بعضه كما في الآية ١٠٧، بينما اللحاظ في النص الثاني أن اللَّه سبحانه هو الذي

خلق الجهات وهو مالكها، ولهذا فأثره حاضر في جميعها، وله هو فقط سبحانه الحق في توجيه عباده إليه من خلال الجهة التي يريد، وهو ما يوحي له قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي لأي جهة تتجهون للعبادة سواءً كان إلى بيت المقدس أو الكعبة فهو توجّه إلى اللَّه ﷻ، ولا يعني ذلك جواز استقبال أيّ جهة إلى الآن، وإنما هو تأسيس نظري لتشريع القبلة وتحويلها.

وقوله سبحانه ﴿فَثَمَّ﴾: أي يوجد ويتحقق مفهوم التوجه إلى اللَّه سبحانه فهو لا يحدّه مكان.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾.

تضيف الآيات من هنا مشكلة أخرى عند بني إسرائيل بمختلف فروعهم وهي الجهل في أمور العقيدة، فالذين يدعون أنهم الأقرب إلى اللَّه ﷻ وأنهم الوحيدون الذين يستحقون دخول الجنة لا يدركون أبسط الأصول العقدية، كادّعائهم بأن للَّه جلت قدرته ولدًا، وهو يتنافى بشكل واضح وصريح مع مفهوم التوحيد، ويجب أن ننزّه اللَّه سبحانه عنه، لأن كل ما في الوجود مملوكون له جلت قدرته بما في ذلك الأنبياء كعزيز الذي أدعى اليهود أنه ابن اللَّه، وعيسى الذي ادعى النصارى أنه كذلك أيضًا، والجميع منهم له ﴿قَانِتُونَ﴾: أي متعبّدون خاضعون له.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾.

بَدِيعُ: أي أبدع وخلق السماوات والأرض من لا شيء، ولا يعجزه

شيء، فما أن يشاء شيئًا ويحكم بحصوله وتحققه إلا ويتحقق كما شاء سبحانه في الحال من غير أن يكون محتاجًا أو مضطرًا لاتّباع سبب ما، فهو شاء أن يميت عزير ويحييه، وشاء أن يخلق عيسى من غير أب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾.

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: كفّار قريش وأمثالهم لأنّهم كانوا أميّين، وذلك تمييز لهم عن أهل الكتاب. ولعل توصيفهم بالذين لا يعلمون هنا لأن منطقهم كان منطقًا جاهليًا سطحيًا، بسبب أنهم تصوروا بأن جميع الحقائق مادية، وأن طريق اثباتها مادي أيضًا، وهذا ما دعاهم لمطالبة النبي ﷺ بأن يكلمهم اللَّه ﷻ مباشرة ليخبرهم بوجوده أو بصحة نبوة النبي والتشريعات المنزَلة، أو أن يريهم معجزة مادية تتناسب مع أهوائهم، وكان هذا هو عينه منطق الأمم السابقة، ووجه الشبه بينهم الجهل وعمى القلب، ومن يكون كذلك ليس مؤهَّلًا لإدراك الحقائق، فلا يقوى على إدراكها إلا أصحاب القلوب الخالية من الشوائب الذين بلغوا درجة عالية من العلم واليقين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾.

وما طلبوه من أمور مادية ليس هو وظيفة الأنبياء عليهم السلام، فمسؤوليتهم إنما هي التبشير بالخير الذي ينتظر المؤمنين المصدّقين، والإنذار بالخطر

الذي يؤول إليه الجاحدون، وذلك دور كل مصلح. ثم نصت قائلة ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾: فالأنبياء والمصلحون لا يتحمّلون فشل مجتمعاتهم، لأنّ دورهم فقط التبشير بالخير والإنذار من الشر وعواقبه، والمجتمعات عليها أن تختار.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾.

وَلَن: وذلك إشارة إلى التأبيد أو الغلبة، فأحد مظاهر العصبية التي يتصف بها بعض أهل الكتاب تتجلى في رفض الحق الذي تمثله رسالة النبي ﷺ مهما بلغ من وضوح، ومهما أقيمت عليه الأدلة والبراهين، لأنهم يرون بأن القبول به لا يصب في مصلحتهم الخاصة، ولهذا يمكن أن يتوافقوا مع النبي عليه السلام ويسلموا به فيما إذا اتبع هو عقيدهم لا العكس، إلا أن عقيدتهم المصطنعة من قِبَلِهم عقيدة تقود إلى التيه والضياع، والذي يقود إلى الهدى إنما هو القيم التي شرَّعها اللَّه ﷻ، فتعاليمه هي الهدى لا غير. وإنما خرجت عقيدتهم عن طريق الهدى لأنها نابعة من أهوائهم وميولاتهم العصبية الخاطئة، وليس للإنسان السوي إلا الأخذ بالعلم والمعارف الحقة النابعة من الحكمة.

﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي لن يكون اللَّه ﷻ وليًا يلي ويدير أمور أحد ويحكم مسيرته في الحياة ولن يكون نصيرًا ومعينًا له فيما لو تخلى عن العلم واتبع الميولات الخاطئة، ما يعني أن الدين يجب أن يُنقّى من جميع الأهواء والميولات البشرية.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾.

هذا أمر يرتبط بجميع أهل الديانات، ويؤكد على المنهج الصحيح للتعامل مع الكتب السماوية، ويتقوّم ذلك المنهج بعنصرين، الأول: الإيمان والتصديق بالكتاب، والثاني: قراءته واستنباط معانيه بالوجه الصحيح وبما يليق به ككتاب سماوي موحى من قِبَل اللَّه تعالى.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فهؤلاء إن قرأوا القرآن أو أيّ كتابٍ سماوي قراءةً صحيحة تليق به فإنّ ذلك دليل إيمانهم الحقيقي والصادق به، أي الذي يؤمن بالقرآن إنّما هو الذي يقرؤه قراءةً صحيحة ويلتزم بما فيه من تعاليم، وقد يفيد ذلك أن القدرة على استنباط المعاني القرآنية متوقفة على الإيمان بالقرآن.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)﴾.

ثم تختم الآيات بإرشاد لبني إسرائيل خاصة بمختلف طوائفهم، وذلك بأن يذكروا النعم العظيمة التي خصهم اللَّه تعالى بها ومنها أنه أنعم عليهم بإرسال الأنبياء إليهم ومنهم، وجعلهم ملوكًا وما إلى ذلك، وبذلك وأمثاله فضلهم على ﴿الْعَالَمِينَ﴾: من الذين عاصروهم والسابقين لهم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾.

سبق بيانها في تفسير الآية (٤٨)، ولكن الفارق هنا تقديم العدل على الشفاعة، بينما هناك تقدمت الشفاعة على العدل، فلا يُقبَل من هذه النفس أي شيء يعادل الذنب الذي ارتكبته، ولا تنفعها أي وساطة، ولن تجد أي جهة تنصرها.

ملة إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾.

امتحن اللَّه ﷻ نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا المصطفى وآله أفضل التحية وأزكى التسليم بعد أن بلغ درجة الخِلّة بأمور ثقيلة للتدليل على مستوى التسليم عنده، كالدخول في النار وأخذ عائلته إلى البيت الحرام حيث كان وادٍ غير ذي زرع وذبح إسماعيل عليه السلام، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فجاء بكل ذلك بتمامه والتزم به بحذافيره، وذلك ما جعله أهلاً للإمامة، فطلب إبراهيم عليه السلام الإمامة لذريته، فجاءه الجواب بأنّ الإمامة عهدٌ من اللَّه ﷻ وتكليف إلى من كان عادلًا متكامل الإيمان، وأمّا العاصي فلا.

من تشريعات المسجد الحرام

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾.

تشير هذه الآية إلى جملة من الأحكام التي ينبغي الالتزام بها بالنسبة

لكل من يفد مكة المكرمة لحج أو عمرة، ولكل مقيم أو زائر للمسجد الحرام أيضًا:

﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: يثوبون إليه أي يرجعون إليه كلّما زاروه وغادروه، وموضع يأمن فيه الناس على أنفسهم من أي اعتداء. وقوله سبحانه ﴿جَعَلْنَا﴾ قد يُسْتَشَم منه الجعل التكويني، بأن يكون اللَّه ﷻ قد جعل البيت قائمًا على أساس هذين القانونين بصفتهما سنة طبيعية لا يمكن تخلّفها، كما جعل الشمس تطلع من الشرق وتغيب من الغرب، لكن الأقرب للاعتبار أن الجعل تشريعي، ما يعني أنه أمر موجَّه للناس بالسعي الدائم لتكرار قصد البيت الحرام حجًا وعمرةً، وبالمحافظة على الأمن وسلامة الحياة في مكة المكرمة، فهو قانون وحكم شرعي يمكن تخلّفه بالعصيان.

﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: أي اجلعوا الصخرة التي كان يقف عليها إبراهيم الخليل عليه السلام عندما كان يبني الكعبة مكانًا للإتيان بصلاة الطواف، وذلك بأن تصلّوا خلفها دون جانبيها.

﴿وَعَهِدْنَا﴾: أخذ اللَّه ﷻ عهدًا على خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل عليهما السلام حين أمرهما بإعادة بناء الكعبة أن يطهرا المسجد الحرام، وذلك بتنظيفه من الأوساخ المادية والمعنوية كالأصنام والإجرام وشبه ذلك، ليكون مكانًا صالحًا لجميع أنواع العبادة، وقد ذكرت الآية ثلاثة منهم على نحو الترتيب، والظاهر أن هذا الترتيب مفيد للأفضلية، فأفضل صور العبادة في خصوص المسجد الحرام الطواف، ومن بعده في الفضل يأتي الاعتكاف، ثم الصلاة، وتقديم الركّع على السجود لا يظهر له علاقة بالأفضلية وإنما لأن الركوع سابق للسجود في الصلاة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾.

مع أن الآية السابقة ذكرت أن اللَّه سبحانه جعل البيت آمنًا، إلا أن الآية هنا ذكرت الأمن على أنه دعاء من نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام، ولعله في سياق التأكيد وإظهار أهمية الأمر، ويظهر أن المراد بالأمن هنا الأمن الاجتماعي، ولذلك عطفت الآية بذكر الأمن الاقتصادي وهو الثمرات، والمراد بأهله بحسب الظاهر ليس من يستوطن مكة فقط، وإنما من يتواجد فيها ولو آن ما، لكن الخليل إبراهيم عليه السلام خصَّ منهم المؤمنين باللَّه ﷻ واليوم الآخر.

ويلاحَظ أن الآية لم تذكر استجابة صريحة للدعاء، كالذي ورد في آيات أخرى مثل ﴿فاستجبنا له﴾، لأنها انتقلت للوعيد الإلهي للكافرين حيث جاء في الآية ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ والقائل هو اللَّه سبحانه، لكن هذا النوع من الكلام يستبطن قبولًا بالكلام السابق، لأن حكمه سبحانه على من كفر بتركه يتمتع في الدنيا لمدة قليلة ثم يميته مضطرًا غير مختار، إذ لا يمكن للكافر الحي أن يختار الموت على الحياة، ويأخذه أيضًا مضطرًا إلى النار وهو أسوء مصير للإنسان، فهذا الحكم مختص بالكافرين بصريح الآية، وبالتالي فالسكوت عن السابق دليل القبول والرضا، ولو كان فيه استثناء لوجب البيان كما هو المعلوم من منطق الخطاب القرآني.

بماذا دعا إبراهيم عند بناء الكعبة؟

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾.

في الوقت الذي كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يبني فوق قواعد وأُسس الكعبة، لأنّها كانت مهدَّمة أو متهدمة ولم يبق منها إلاّ القواعد، وكان ابنه إسماعيل يعينه، كان يلهج بذكر اللَّه عَزَّوَجَلَّ، وأول ما خاطب به ربه أن ناشده القبول، بأن يجعل عمله في بناء البيت الحرام وسائر أعماله مقبولة عنده سبحانه، لأنه هو الذي يسمع أقوال عباده ويعلم نياتهم، وهذا يشير إلى أن قلبي إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كانا ينطويان على نيات خالصة لوجه اللَّه تعالى. ومن ذلك نتعلم أن ضرورة الاخلاص في أي عمل نقوم به والتقرب به إلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ لا غير، فهو سبحانه فقط من يُترجَّى منه القبول.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾.

ثم طلب من اللَّه تعالى له ولابنه التوفيق لبلوغ درجة التسليم والانقياد له سبحانه، وأن تصبح ذريتهما مع مرور الزمن أمة متماسكة ومنقادة للدين.

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا: أي اجعلنا نعلمها كأنّنا نراها، وفي ذلك حث على السعي للترقي لدرجة العلم التام بحقائق وأحكام المناسك.

وَتُبْ عَلَيْنَا: والتوبة بمعنى الرجوع، أي لا تطردنا من بابك لما يصدر

منا من تقصير، بل تفضّل علينا بالسماح لنا بدخول الباب والتملي من فيض رحمتك وعطائك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: لو لم تذكر الآية ﴿أَنتَ﴾ لكان المعنى تامًا، وهذا يدل على التأكيد من جهة والانحصار من جهة أخرى حتى وإن كان اللقب لا مفهوم له، فالتوّاب إنما هو اللَّه سبحانه لا غير، وهي صيغة مبالغة تفيد سعة التوبة وعظمتها، وفوق أنه توّاب فإنه رحيم يغدق النعم على من يتوب عليه.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾.

وهذا دعاء عظيم من إبراهيم عليه السلام لذريته بأن توفَّق لتكون تابعة للنبي المصطفى محمد صلى الله عليه وآله، وقد جاء التأكيد على استجابة هذا الدعاء في سورة الجمعة، وسيأتي هناك مزيد بيان للعناوين الأربعة المذكورة طياته، وهي: تلاوة الآيات وهي ترديد الذكر الحكيم وما فيه من دلائل وبراهين وحجج لأنه يرسّخ ما فيها من تعاليم وقيم في النفس والعقل البشريين. وتعليم الكتاب وهو فقه الأحكام والتشريعات. وتعليم الحكمة وهو فن إدارة الحياة الفردية والاجتماعية. والتزكية وهي طهارة النفس المؤدية إلى النمو والزيادة في الصلاح. مع ملاحظة أنّ الآية هناك قدّمت التزكية على التعليم بينما الآية هنا قدّمت التعليم على التزكية. وقد ذيَّلتْ الآية هذا الدعاء بقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والعزيز هو الذي لا يُغلَب، والحكيم هو الذي يضع الأمور في مواضعها المناسبة، وقد يفهَم من ذكر هاتين الصفتين في المقام أن بعثة النبي صلى الله عليه وآله هو مقتضى الحكمة لتناسبه مع حاجات الأمم والمجتمعات،

ومقتضى العزة لأن قيم الدعوة المحمدية غالبة على كل الثقافات.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾.

فما ذُكِر من تشريعات وما تضمنته الأدعية من تعاليم ومفاهيم يشكِّل في مجموعه ملة وطريقة نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام الواجب اتّباعها، وأما من ﴿يَرْغَبُ﴾ أي يُعرِض بوجهه عنها ويخالفها ويميل إلى غيرها فإنما هو ممن قد ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي استخفَّ بها.

﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾: الاصطفاء يعني الاختيار بنحوٍ يكون فيه تفضيل على الآخرين، إضافة إلى أنه في الآخرة على نحو التوكيد لمكان اللام ﴿لَمِنَ﴾ من الصالحين. ومن ذلك نستفيد أن الإنسان لفرط صلاحه بإمكانه تحقيق التفوّق في الدنيا والرفعة في الآخرة، لكن بشرط الحصول على الرعاية الإلهية التي تتطلب الاخلاص.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾.

﴿أَسْلِمْ﴾: سلِّم للَّه سبحانه واتبع ما أمرك به، فأعلَنَ تسليمه وانقياده ولم يكتف بإضماره مع أن اللَّه عز جل عالم بالخفيات، بل أظهره بقوله وذيَّله بأن تسليمه لرب العالمين أي مربيهم وراعيهم والمعنى بصلاحهم. والاصطفاء الذي حظي به إنما جاء في الوقت الذي أعلن فيه إبراهيم عليه السلام تسليمه، وذلك يشير إلى سبب الاصطفاء.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾.

موضوع الوصية إما أن تكون ملة إبراهيم أو التسليم لأمر اللَّه ﷻ، وعجز هذه الآية قد يكون مرجِّحًا للثاني، بينما الضمير المؤنث في قوله سبحانه: ﴿بِهَا﴾ ظاهر في الأول، ويمكن الجميع بينهما نظرًا لأن التسليم إنما هو بملة إبراهيم التي تعتبر مقتضى الأمر الإلهي.

فلأهمية التسليم والاتّباع لهذه الملة حيث إنها تشكِّل التعاليم الأم لكل الرسالات السماوية، وصى إبراهيم عليه السلام بنيه بها، كما وصى بها يعقوب عليه السلام بنيه مؤكِّدًا لهم بأن اللَّه ﷻ اختار لهم دينًا قويمًا فتمسكوا به طوال حياتكم، وسلِّموا بقيمه وتعاليمه حتى الموت.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾.

وكأن الخطاب هنا انعطف لمخاطبة بني إسرائيل مرة أخرى لإلقاء الحجة عليهم. فقد كانوا يدّعون بأن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وبنيهم كانوا يهودًا أو نصارى، والحال أنّهم لم يكونوا كذلك بل كانوا مسلمين، فدين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق هو الاسلام، وهو ما كان راكزًا حتى عند أبناء يعقوب عليه ا لسلام، ولهذا حين سألهم عن عبادتهم من بعده في ساعة موته ولم يشهد تلك الساعة أحد من بني إسرائيل المعاصرين لبعثة النبي محمد ﷺ، أقروا باتباع ملة إبراهيم والتسليم بها.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾.

فإبراهيم عليه السلام وبنوه وذريته السابقة ﴿خَلَتْ﴾: أي ماتت حيث تخلو منهم الأرض الآن ويخلون منها، وسينالون هم جزاء أعمالهم الحسنة، ولا ينالكم أنتم شيء منها، والخطاب موجَّه لبني إسرائيل في زمن صدور النص القرآني. وأما أنتم فسيكون لكم جزاء خاص بأعمالكم، وبناء عليه فلن تسألوا عن أعمالهم ولن يسألوا عن أعمالكم، فكل إنسان مرهون بعمله. والكسب يعني طلب الشيء وربحه، لا مجرد ربح بلا طلب، ما يعني أن الذي كسب الخير إنما هو في الحقيقة طلبه وأراده وسعى إليه ثم ظفر به، ولذلك استحق الثواب، وهكذا كسب الشر.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾.

النص هنا تأكيد بلحاظ آخر لما ورد في الآية ١١١، فهناك ذكرت الآية على لسانهم النتيجة حيث قالوا بأن الجنة مختصة باليهود والنصارى، وهنا ذكرت السبب لأنهم ادَّعوا بأن سبل الهداية متاحة فقط لهم. فجاء الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله بأن أبلغهم وسائر المؤمنين وقل لهم ﴿بَلْ مِلَّةَ﴾: أي بل نتّبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾: أي مائلاً ومنحرفًا عن الديانات الباطلة والأهواء الفاسدة ومتجهًا في ميلانه نحو الدين الإسلامي، وبعيدًا عن كل صنوف الشرك.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾.

﴿قُولُوا﴾: يا أهل الكتاب أقرّوا وأعلنوا إيمانكم باللَّه سبحانه. وقد وُجِّه لهم هذا الخطاب مع أنهم نظريًا لا ينكرون وجود اللَّه سبحانه، ما يعني أن عدم الإيمان برسول واحد يلزم منه عدم الإيمان باللَّه ﷻ من رأس، لأن الإيمان باللَّه تعالى شأنه مشروط بشروط.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾: أي أعلنوا إيمانكم برسالة النبي محمد ﷺ، التي هي امتداد لرسالات جميع الأنبياء الذين تقرّون بنبوتهم، بل أعلنوا الاقرار بوحدة الرسالات السماوية والتسليم للَّه ﷻ بما أمر فيها.

﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾: حفدة يعقوب عليه السلام، ويطلق على أولاده أيضًا ولعلّه من باب التغليب لأنّ الحفدة أكثر بكثير من الأولاد.

﴿وَمَا أُنزِلَ ... وَمَا أُوتِيَ﴾: فرقٌ بين الإنزال والإيتاء، فالإنزال يستبطن تكليفًا للمنزَل عليه، بينما الإيتاء يستبطن استحقاقًا، فاللَّه سبحانه آتاه لأنّه يستحق لقوّة إيمانه وتسليمه وتميّزه.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾.

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾: أيّها المسلمون إن آمن أهل الكتاب بمثل ما تؤمنون به فقد سلكوا طريق الهداية، وأما إذا أعرضوا عنه وموضوا فسيكون في ﴿شِقَاقٍ﴾:

أي كل واحد منهم يشقّ له طريقة خاصة به تفصله وتميّزه عنكم وعن قومه وأهل ديانته أيضًا، ولن يضروكم شيئًا لأن اللَّه سبحانه سيعينكم ويحميكم، وهو كاف عبده لأنه يسمع ويعلم بجميع ما يحاك ضدكم مما خفي أو ظهر.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾.

﴿صِبْغَةَ﴾: فالإيمان والانتماء إلى اللَّه سبحانه له لونٌ خاص، أي أيها المسلمون قولوا نحن نتّبع صبغة اللَّه سبحانه وتعالى، وهل لأحد صبغة أتقن وأجمل وأفضل من صبغته سبحانه؟! وأعلنوا الطاعة والخضوع له.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾.

﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾: أي تجادلوننا في أنّ اللَّه سبحانه كيف اختارنا ونحن من ذرية إسماعيل عليه السلام بينما أنتم من ذرية إسحاق عليه السلام، فربنا وربكم واحد، وكلٌّ منّا له عمله الذي يستحق به ويُفضَّل به، مع فارق أنّنا نخلص للَّه في العبادة فلا نشرك معه أحدًا كما تفعلون.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾.

وكعادة بعض المتلاعبين بالتعاليم الدينية من السعي لإضفاء طابع

شرعي على أعمالهم ومتبنياتهم، حاول بعض أهل الكتاب الإدعاء بأن الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريته كان يهودًا أو نصارى ولم يكونوا مسلمين كما أكدت الآية ١٣٣، وذلك لتبرير زعمهم بانتسابهم لرسالة أكابر الأنبياء وأنهم امتداد لهم.

وهنا الآية تترقى في رد ادّعائهم، فأولًا لو بنينا على عدم علمهم واشتباههم، فمن الأعلم بذلك هل بنو إسرائيل أم اللَّه سبحانه، وأما إذا بنينا على علمهم وإصرارهم على الكتمان فلا ظلم للنفس ولا تعدٍّ على الحقيقة والعلم أعظم من ذلك.

﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً﴾: لأنّهم كانوا يعلمون الحقيقة ومع ذلك يكتمونها، وفي ذلك تعميم لكل من يعلم الحقيقة الدينية ثم يكتمها أو يشوهّها لمصالح تخصّه. لكن كل ذلك تحت الرقابة الإلهية، وهي شاملة ودقيقة لا يعتريها غفلة ولا سهو.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾.

(١٤١): ثم تؤكّد الآية ما جاء تمامًا في الآية ١٣٤، بأن كل أمة مرهونة بعملها، ولا يتحمل أحد مسؤولية عمل غيره، فلكل ما عمل، ولهذا فإن مجرد الانتساب للأنبياء السابقين لو صح فلن يكون له أثر في الثواب والعقاب.

القبلة الشريفة

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾.

وتعني هنا الجهلاء الذين ليسوا مجرد لا يعلمون وإنّما الذين يستخفّون بعقولهم حيث يستندون في كلامهم إلى مقارنات واستدلالات خفيفة من حيث القيمة العلمية.

﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾: لماذا ابتعدوا وانصرفوا، أو ما الذي أبعدهم وصرفهم عن التوجه لبيت المقدس الذي كان قبلةً لهم في الماضي.

لكن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام تشريع صادر عن اللَّه سبحانه، كما كان التوجه إلى بيت المقدس قبل ذلك تشريعًا إلهيًا أيضًا، وهو المالك لسائر الجهات والخالق لها وليس لأحد حق في تحديد الجهة التي يتوجه من خلالها إلى اللَّه تعالى، كما أنه الموفق لمن يشاء من عباده للهداية والتسليم لأحكامه.

﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معنى ذلك أنّ التوجه إلى المسجد الحرام يُعدُّ عند اللَّه سبحانه هو الصراط المستقيم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾.

وكما جعلنا تحويل القبلة هداية لكم إلى طريق مستقيم ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: تمشون في خطٍ مستقيم باعتدال، فلا إفراط ولا تفريط.

﴿شُهَدَاءَ﴾: أي أمثلة ونماذج مشهودة وواضحة تكون حجة على الأمم من خلال تجسيدها الصحيح لتعاليم السماء، في حين يكون الرسول ﷺ النموذج الذي يقتفي أثره سائر المؤمنين.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: أي لم نجعل في السابق بيت المقدس قبلةً ثم نجعل الكعبة إلاّ لامتحان المستوى الإيماني عند العباد، فعندما يشعر الإنسان بفقدان مصالحه الشخصية يظهر آنئذٍ مستوى صدقه، فالمؤمن يتّبع، وغيره ينقلب على عقبيه.

﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: العقب الجهة الخلفية من الإنسان، وعقب الرِّجْل نهايتها من الخلف.

والانقلاب على العقب يعني الرجوع إلى الخلف، لكن ليس مجرد ميلان وإنّما انقلاب كانقلاب الإنسان على وجهه بأن يصبح وجهه على الأرض وأرجله بالأعلى، وهذا يعني الرجوع إلى الكفر.

﴿لَكَبِيرَةً﴾: لأنّ الإيمان والتسليم يحتاج إرادة قوية وهذا أمرٌ كبير على

غير المؤمنين.

﴿لِيُضِيعَ﴾: لأنّ اليهود زعموا بأنّ تغيير القبلة يلزم منه بطلان الصلوات السابقة.

﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: الرأفة نوع خاص من الرحمة وهي شدة الرحمة وفي الغالب تقع فيما لا يكرهه الإنسان، بينما الرحمة هنا عامة وقد تقع فيما يكرهه الإنسان.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾.

﴿فَوَلِّ﴾: وَجِّه.

﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أيّ جزءٍ منه إذ يكفي التوجّه إلى الجزء لا الكل.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾: وفي أيّ مكان أو بلد تكونون.

كان اليهود يعيّرون المسلمين بأنّهم تبعٌ لهم في قبلتهم وهي بيت المقدس، وحَزَّ هذا في نفس النبي ﷺ وانغمَّ لذلك غمًّا شديدًا، فصار في إحدى الليالي ينظر في آفاق السماء ويقلّب طرفه يمينًا وشمالاً، فعلم اللّه ﷻ ما في نفسه وما يتمنّاه من تحويل القبلة، فلما أصبح وصلّى الفجر ثم صلّى ركعتين من الظهر نزل عليه جبرئيل وقرأ عليه الآية وحوّل وجهه نحو الكعبة، فتحوّل المسلمون

معه بمجرد أن رأوه يفعل ذلك، وكان النبي ﷺ قد صلّى باتجاه بيت المقدس ثلاثة عشر سنة في مكة وتسعة عشر شهرًا في المدينة.

ويُلاحظ هنا أنّ النبي ﷺ لم يطلب بلسانه وإنّما بقلبه حيث كان يقلّب طرفه صامتًا، كما أنّ الآية قالت ﴿تَرْضَاهَا﴾ إشارة إلى الرضا القلبي، والاستجابة الإلهية جاءت سريعة كما يدل عليه التعقيب بالفاء في قوله ﴿فَوَلِّ﴾.

﴿لَيَعْلَمُونَ﴾: أي أنّ اليهود كانوا يعلمون صحّة نبوّة النبي ﷺ وأنّه يُوحَى له فعلاً، وتحويل القبلة وحيٌ لكنّهم كانوا يكابرون ويصرّون على الباطل، وهذه مشكلة من يشعر بأنّ التعاليم تخالف مصالحه أو أنّ حامل تلك التعاليم ليس محسوبًا عليه، فإنّه يصرّ على الرفض. لكن اللّه جلت قدرته مطّلع على كل أعمالهم.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾.

﴿أَتَيْتَ﴾: لو أنك يا رسول اللّه قدّمت لليهود والنصارى كل الأدلة الدالة على صحّة التوجّه نحو الكعبة، فلن يسلِّموا بذلك ولن يقبلوا بالتوجه نحوها، تمامًا كما إنك بعد هذا اليوم لن تصلي باتجاه بيت المقدس حيث علمت الحق، بل أهل الكتاب أيضًا فرق وجماعات ولكل منهم قبلة خاصة ولن يتبع أحد منهم قبلة الآخر. لكن عدم اتباعهم لقبلتك صادر عن أهوائهم، حيث إنهم يتوهمون أن ثبات هويتهم الخاصة متوقف على اتباع قبلتهم،

فالأمر راجع للهوى والمصالح الشخصية الوهمية، بينما أنت يا رسول اللَّه لا تتبع قبلتهم لما وصلك من العلم بحقيقة التشريع الجديد، فسلَّمت له، ولو أنك رضخت لمرادهم لظلمت نفسك وأمتك، لما في ذلك من مخالفة لأمر اللَّه تعالى وتضييع للمصالح العظيمة للتشريع الجديد.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾.

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: المعرفة هنا غير العلم والمورد هنا يتطلّب معرفة وإن لم يكن علم، فأهل الكتاب يعرفون أي يميّزون ما فيه كصحّة نبوّة النبي محمد ﷺ وصحّة رسالته بشكلٍ واضح كما يميّزون أبناءهم، وذلك لأنّ النصوص واضحة لهم وإن لم يكونوا عالمين بدقائقها.

﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: اللام في ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾ للتوكيد وتفيد هنا الإصرار على كتمان الحق وهم يعلمون أنّهم يكتمونه لا أنّه اشتبه عليهم. والآية هنا تنص على أن مجموعة منهم يقومون بدور التغطية والتعتيم لا جميعهم، وربما يُفهَم من ذلك أن بعض علمائهم لديهم عنصرية شديدة وعصبية طاغية وجرأة على مخالفة الحق عن عمد واختيار، بينما البقية ساكتون مع علمهم بالفرق بين الحق والباطل، فيصبح بذلك الساكتون شركاء في المعصية للآخرين.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾.

وهذا خطاب من اللَّه ﷻ إلى النبي المصطفى ﷺ كواسطة لبلوغه إلى أمته، ومقتضاه أن الحق الذي يكتمه بعض أهل الكتاب إنما هو من اللَّه

سبحانه، فكن على يقين ولا تكن من الْمُمْتَرِينَ: الشاكّين، وأمر أمتك بذلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾.

لكل أهل ديانة قبلة هم يتوجهون إليها، أو أن اللَّه ﷻ أمرهم بالتوجّه إليها، وقبلتكم أيها المسلمون المسجد الحرام واللَّه سبحانه هو الذي وجّهكم إليها، فلا يعتريكم الريب بسبب أقاويل أهل الكتاب، بل سابقوا غيركم وبعضكم البعض أيضًا واسبقوهم في التوجّه إليها، فإنّ في الصلاة إلى القبلة الجديدة خيرات وبركات كثيرة، وسيأتي اليوم الذي يجمعكم اللَّه تعالى فيه جميعًا للحساب لتروا ثواب التوجه للكعبة وعقاب المخالفة، فإنه قادر على ذلك وعلى كل شيء أراد.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾: ومن أيّ مكانٍ خرجت مسافرًا فقبلتك هي الكعبة أيضًا، أي لا فرق بين السفر والحضر.

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: وهذا تأكيد آخر لما مضى في الآيتين ١٤٦ و١٤٧، ولكن بلحاظ آخر هنا، فهناك الحق متعلق ببعثة النبي ﷺ، وهنا متعلق بالتوجه إلى الكعبة. وتأكيد أيضًا على الرقابة الإلهية على أعمال العباد.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾.

وتأكيد آخر في صدر هذه الآية على ما مضى في صدر الآية السابقة وبلحاظ آخر ذكر هنا، حيث قال سبحانه بعد ذلك ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾: وفي أيّ بلدٍ أو مكانٍ تكونون فلا فرق في التوجه، فعلى كل حال يجب أن يكون التوجه إلى الكعبة المشرّفة.

لكن ما الوجه في التأكيد على هذا الأمر مرة أخرى؟

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾: وإنّما جعلنا لكم أيّها المؤمنون قبلةً خاصّة لكيلا يعيّركم أهل الكتاب وغيرهم بأنّكم تبعٌ لهم، وبالتالي ليكون لكم استقلالكم، وإن كان بعض الظالمين سوف يستمر في التعيير وافتعال الأدلة الفاسدة على بطلان قبلتكم.

﴿مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾: فلا تجزعوا أمام أدلّتهم فإنّها واهية، ولا تخافوا منهم فلا مقدرة لهم على الإضرار بكم، وإنّما اخشوني باتباع أوامري وعدم مخالفتها، فإنّما أمرتكم بها ومنها القبلة الجديدة لأكمل لكم النعم وأهيّئ لكم سبل الهداية.

ويتضح من هذه الآية أنّ من بين حِكَم تشريع القبلة الجديدة تدعيم جانب الاستقلال عند المؤمنين.

سجايا المرء المؤمن

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾.

فبالاضافة إلى النعم التي أنعمت عليكم أيها المسلمون وهيأت لكم سبل الهداية، فإني مننت عليكم بأن أرسلت فيكم رسولًا منكم، عارفًا بقضاياكم وظروفكم، ناطقًا بلغتكم، أي ليس غريبًا ولا بعيدًا عنكم.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾: هذا النص وما بعده متطابق مع الآية (١٢٩) من هذه السورة والآية (٢) من سورة الجمعة وسبق الاشارة لبعض النكات المتعلقة به، وسيأتي الكلام حول نكات أخرى في سورة الجمعة. وما ينبغي الاشارة إليه هنا أن صياغة ما قبل العجز في هذه الآية مطابق لما قبل العجز في سورة الجمعة حيث قُدِّمتْ التزكية على تعليم الكتاب والحكمة، بينما في الآية ١٢٩ جاء تعليم الكتاب والحكمة قبل التزكية. ومن ذلك نفهم أن الأهمية في الآية ١٢٩ للتعليم ثم التزكية، بينما في هذه الآية الأهمية للتزكية ثم التعليم، وربما نفهم من ذلك أن التعليم في بعض الأحيان يلحظ بكونه سببًا مهيّئًا للتزكية، فإذا تعلَّم الإنسان أصبح مدركًا لمعاني التزكية وأهميتها، بينما في أحيان أخرى تلحظ التزكية بصفتها سببًا يجعل من الإنسان أرضية

صالحة للتعلم.

وتبيّن معنا في الآية ١٢٩ المراد بالتلاوة والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة، لكن هنا ختمت الآية بقوله سبحانه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، وهو إضافة في موارد التعليم، فالكتاب يعني الأحكام والتشريعات، والحكمة تعني فنون إدارة الحياة، وأما الذي لم يكونوا يعلمونه فكثير غير ذلك كالأمور الغيبية وأحداث التاريخ وشبه ذلك. وسيأتي إضافة حول هذا الأمر في سورة الجمعة لأن الآية خُتِمَتْ هناك بقوله سبحانه ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾، أي لم تلحظ جانب الجهل بالمعلومات وشبهها، وإنما جانب التيه والضياع.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾.

هذه معادلة قرآنية هامة فمن يذكر اللَّه سبحانه بلسانه ولا ينساه في قلبه يذكره اللَّه تعالى في الثواب والرحمة واستجابة الدعاء، والعكس صحيح كما في الآية ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [سورة الفرقان: ٧٧]. والشكر إقرار للَّه سبحانه بأنّه هو المنعِم، وعدم الشكر نوعٌ من أنواع الكفر لأنه جحود بالنعم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾.

(١٥٣): صدر هذه الآية مطابق لصدر الآية ٤٥ وقد سبق بيانه، إلا أن الآية هناك ختمت بقوله سبحانه ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، بمعنى أن الاستعانة في هذين الأمرين لَكَبِيرَةٌ لا يقوى عليها إلا صنف خاص من

الناس وهم الخاشعون، بينما خُتِمَتْ هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ما يفيد بأن اللَّه ﷻ يؤيد بعونه ويرعى برحمته الذين يصبرون عند تأديتهم للوظائف الدينية إذا اتصفوا بصفة الخشوع.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾.

(١٥٤): مفهوم الحياة بعد الموت غامض على الأحياء، ولذلك لا يسعهم إدراك معانيه العميقة، وهذا ما يجعلهم يتوهمون أن الشهيد في سبيل اللَّه تعالى والذي ترخص عنده نفسه وأعز ما يملك في طاعة اللَّه ﷻ يصبح ميتًا كسائر الموتى، بينما هو يحيى حياة أخرى لا يفهم أبعادها ويلمس حقيقتها الأحياء، ولذلك لزم التسليم بما وعد اللَّه سبحانه به.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: هذا التعبير المتضمّن للام التوكيد ونون التوكيد يشير إلى حتمية الابتلاء، لكنه تربوي.

﴿بِشَيْءٍ﴾: فمهما أخذ اللَّه سبحانه من الإنسان ابتلاءً له فهو قليل قياسًا للكثير الباقي عنده، إضافةً إلى أنّ أخذه ليس اعتباطًا وإنّما يصبُّ في مصلحة الإنسان نفسه لأنّه ابتلاء ومزيد تربية له. فالخوف من عدو أو مستقبل أو فقر وما أشبه، والجوع وقلة الموارد المعيشية، والنقص في القدرات الاقتصادية أو الأرواح، والنقص في المحاصيل الزراعية وشبهها، وقيل المراد بالثمرات الأولاد.

وهذا مورد من موارد الصبر الذي ذكرته الآية (١٥٣)، فكيف يتعامل الإنسان المؤمن مع مثل هذه الابتلاءات؟.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾.

(١٥٦): فحينما تمر على الإنسان حادثة مأساوية شديدة وتصيبه فعلًا في ماله أو بدنه أو أعزائه أو أي شيء مما ذكر أعلاه في الآية السابقة، فليبادر بالاسترجاع، فإن قوله ﴿إنا للّه﴾ إقرار منه بأنه مملوك، وقوله ﴿وإنا إليه راجعون﴾ إقرار منه بالهلاك والموت والرجوع إلى اللّه سبحانه وتعالى، وهذا التفسير وارد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فإن فعل ذلك حصل على ثمار عظيمة ذكرتها الآية القادمة.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

﴿صَلَوَاتٌ﴾: أي ينزل عليهم من اللّه سبحانه عطفٌ مُدِرٌّ للثواب العظيم.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: الرأفة والعناية الدائمة في الدنيا والآخرة.

﴿الْمُهْتَدُونَ﴾: معنى ذلك أنّ الصبر إذا كان مقترنًا بالرجوع إلى اللّه سبحانه له أثرٌ هام على توازن القوّتين العقلية والروحية عند الإنسان ولهذا يكون على هدىً بفعل الصبر.

الإفصاح عن الحق

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾.

﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: علامات تدل على اللَّه جل شأنه وتشير إليه.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: تجويز في مقابل توهّم الحظر، لأنّ المسلمين كانوا يظنون حرمة السعي والطواف بين الصفا والمروة، فجاءت الآية لدفع هذا التوهّم. وكان سبب التوهّم وجود صنمين على الصفا والمروة، مما أدّى إلى تحرّج المسلمين من الطواف بينهما، فقالت الآية لا حرج ولا إثم ولا ميل عن الحق، بل هو محض الحق لأنّ جُناح بمعنى الميلان عن الحق.

﴿يَطَّوَّفَ﴾: يتطوّف وأُدغِمت التاء والطاء.

﴿بِهِمَا﴾: بينهما.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: تحتمل مَن جاء بسعيٍ آخر في عمرةٍ أخرى أو حجٍ آخر، وتحتمل من جاء بأعمالٍ صالحة من العبادات أو المعلاملات،

وربما يُستدَل بها على استحباب السعي في نفسه وإن لم يكن من ضمن عمرة أو حج، ولكنه يحتاج مزيد تأمل. فمن جاء بشيء من ذلك تبرّعًا من باب الاستحباب فإن اللَّه ﷻ سيقدّر عمله ويكافؤه بالثواب العظيم، لأنه سبحانه عالم بما يأتي به عباده ولا يُنقِصهم شيئًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾.

﴿الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾: البيّنات: الدلائل والآيات الواضحة الدالة على النبوّة والرسالة. الهدى: الأحكام والتعاليم التي تسير بالإنسان في طريق الهداية. فالذي يعلم بكل ذلك، خصوصًا من العلماء المطلعين بالكتب السماوية حيث إن اللَّه سبحانه بيّنه بكل وضوح فيها، ثم يعتّم عليه ويغطيه كي لا يستدل عليه الناس، فإن اللَّه جلت قدرته ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾: أي يطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة، ويتبرّأ منهم ويبعدهم جميع الخلائق من الملائكة والإنس والجن، وفي ذلك توجيه إلى ضرورة الابتعاد عن أمثال هؤلاء اجتماعيًا وفكريًا.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾.

﴿تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾: رجعوا إلى اللَّه سبحانه وأصلحوا طريقتهم في التعامل مع الدين وبيّنوا بوضوح تعاليم الدين. فلو كتم بعض العلماء تعاليم الدين مدة من الزمن ثم تابوا وبدلوا طريقتهم وصاروا يبلّغون التعاليم ببيان

واضح خالٍ من أي تلاعب أو تجيير لمصالح خاصة، فإن اللَّه ﷻ يتوب عليهم ويسمح لهم بالرجوع إليه، فإن اللَّه سبحانه سريع الصفح والتوبة على عباده، بل يزيدهم رحمة ونعمة وعطاءً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)﴾.

(١٦١): من يصر على عناده وجحوده إلى أن يفاجئه الموت بالرغم من وضوح الدلائل ووسائل الهداية الواصلة إليه، فهم من المطرودين من رحمة اللَّه ﷻ، ويتبرأ منهم جميع الملائكة والناس.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)﴾.

وهذه اللعنة مستمرة لا تنقطع أبدًا. ومثل هذه اللعن يستتبع العذاب الذي يستمر على وتيرة واحدة أو يتضاعف لكنه لا يقل، مع أن في الطرد من الرحمة الإلهية أشد أنواع العذاب، أعاذنا اللَّه تعالى وإياكم من غضب الرب الجليل.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: لا يُمهَلون يوم القيامة كي يغيّروا طريقهم كما يُمهَلون في الدنيا، بل يُعجَّل لهم العذاب.

التوحيد وتجلياته

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾.

(١٦٣): تؤسس الآية الرؤية النظرية لمفهوم التوحيد بأسلوب الخطاب لا التقرير، فلم تقل (اللَّه لا إله إلا هو) مثلًا كما في آيات أخرى، وإنما خاطبت المكلَّفين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾، وذلك بحسب الظاهر لأن الآيات في سياق الحديث عن التجليات العملية لهذا المفهوم في حياة المؤمنين.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾: أي الذي تتعبدون إليه معبود واحد، ولا يوجد معبود سواه، فليس إلا هو سبحانه، وهو رحمن بسائر عباده وهي رحمة عامة، ورحيم بخاصة المؤمنين به وهي رحمة خاصة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾.

﴿وَاخْتِلَافِ﴾: كلٌّ منهما يأتي خلف الآخر وعُقْبَه، فهما يتعاقبان.

﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾: كالبضائع وحمل الناس للسفر والصيد.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾: نشر في الأرض من جميع أنواع الكائنات التي تدبُّ على الأرض كالحيوان والإنسان، والدبيب هو التحرّك والسير على الأرض بشكلٍ أخف من المشي. ولعل ذكر الدبيب هنا دون المشي لأنّ جميع الحيوانات العاقلة وغيرها في بداية تكوّنها تدب ولا تمشي، أو من باب التغليب نظرًا لأنّ أغلب الحيوانات تدب ولا تمشي.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: توجيهها من مكانٍ إلى آخر وتحويلها من حالةٍ إلى أخرى.

﴿الْمُسَخَّرِ﴾: أي ذلّله وجعله مطيعًا لأمره في الفضاء بين السماء والأرض.

فخلق السماوات والأرض بالكيفية العظيمة المعهودة، وهطول الأمطار بإذن اللّه تعالى على الأرض لإعادة الحياة به إلى الأشجار الميتة، والفلك والرياح، كل ذلك ينبغي أن يكون مدعاة للتفكير والتأمل من قبل العقلاء، لأنه يشير بشكل صريح إلى عظمة الإله الواحد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾.

الذين يتكبرون على عبادة اللّه سبحانه ربما يتظاهرون باستغنائهم عن الحاجة للغير، لكنهم في الحقيقة يمارسون عبادة من نوع آخر ويلوذون بالغير، ولهذا يتخذون ﴿أَندَادًا﴾: والند هو المِثْل المخالف والمضاد، ويتعلّقون بهم و﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾: أي بمستوى الحب الذي ينبغي أن يُحَبَّ به اللّه

سبحانه. وبالتالي فهم لا يبقون في فراغ كما يدّعون.

﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾: فالمؤمن حبّه للَّه ﷻ أقوى من حبه لأيّ شيء آخر، فهو يقدّم إرادة اللَّه سبحانه على كل مصلحة وإرادة، لكن لا من منطلق الخوف وإنّما من منطلق الحب وهو ما يدلّل على الصدق في الانتماء.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾: ولو أنّ الذين ظلموا رأوا العذاب بشكلٍ فعلي الذي سيجري عليهم يوم القيامة لعلموا حينئذٍ أنّ القوّة بأكملها للَّه سبحانه فقط وأنّ عذابه شديد، ولما اتخذوا له نِدًّا.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾: أي في يوم القيامة سيتبرّأ الذين اتُبِعُوا وهم الأنداد من الذين اتبعوهم، وحينها سيرى جميعهم التابع والمتبوع العذاب وشدته، ولن يجدي أي سبب إذ إنّ جميع الأسباب ستتقطّع كالنسب والصداقة والمودة والرئاسة وما أشبه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

﴿لَوْ﴾ أداة شرط غير جازمة تفيد الامتناع، أي امتناع الجواب لامتناع الشرط، فلو أنّ لنا رجوعًا لكنّه ممتنع ومستحيل.

﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾: أي فنتخلّى عنهم ونقطع الصلة بهم كما تخلوا عنا وأنكروا

أي صلة بينهم وبيننا. وقد نُصِب الفعل لأنّ المضارع الذي يأتي بعد فاء الجواب يُنصب لتقدير أن المضمرة، والسبب هنا عدم جواز عطف الفعل على الاسم والعكس، ولهذا يصبح العطف على المصدر المؤول، فيكون المعنى لو أنّ لنا الكرة والبراءة - التبرؤ-.

﴿حَسَرَاتٍ﴾: إذ ستصبح أعمالهم يوم القيامة ندامات شديدة، فالحسرة بمعنى الندم الشديد، فلن يروا أعمالهم إلاّ في هيئة ندامات شديدة، ولن يجدوا مجالًا للخروج من النار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨)﴾.

﴿كُلُوا﴾: فجميع ما في الأرض متاح ومباح للإنسان، وكله حلال لا تشوبه حرمة أو كراهة، وطيب قابل للاستعمال والاستفادة. وفي ذلك تأسيس صريح لقاعدة الحل.

ولكن عليكم ملازمة الحذر من ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أي لا تسيروا في الطريق الذي يتخطّى فيها الشيطان، ولا تمشوا خلفه في طريقه.

﴿عَدُوٌّ مُّبِين﴾: فعداوته لكم جليّة وليست خفيّة.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾.

وعداوة الشيطان تتجلى في إغواء الإنسان للاقدام على الاتيان بأمور

ثلاثة: الأول السوء: وهو الأعمال والأخلاقيات السيئة، والثاني: الفحشاء: وهو من الفحش وهو تجاوز الحد أي تجاوز تعاليم السماء وعدم الالتزام بها بدقتها، والثالث: التقوّل على اللَّه سبحانه في الأحكام وشبهها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾.

الذين اتخذوا من دون اللَّه تعالى أندادًا، إذا وُعِظوا بأن يسيروا في حياتهم طبقًا لما أنزل اللَّه سبحانه من تعاليم وأحكام، أجابوا بلغة العناد سنعمل طبقًا لما ﴿أَلْفَيْنَا﴾: أي وجدنا أباءنا يعملون.

﴿أَوَلَوْ﴾: الهمزة للتعجّب، والواو للحال، فهو سؤال استنكاري ومفاده: أيتّبعون آباءهم والحال أن آباءهم لا يستعملون عقولهم في أي شيء ولو كان صغيرًا، ولا يحملون قيمًا وتعاليم صحيحةً تهديهم إلى الحق.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

هذا تشبيهٌ بالحيوان الذي إذا نعق أيّ صوَّتَ عليه الراعي فإنّه لا يفهم أبعاد التصويت، وإنما يسمع دعاءَ وطلبَ الراعي إلى الشرب مثلاً، كما يسمع صوت وصياح الحيوانات، وبالتالي هو يسمع طلبًا وصياحًا من دون أن يفهم أو يعقِل، وهذا حال الكافر مع الأنبياء عليهم السلام، فهو إنّما يسمع فقط منهم طلبًا وصياحًا لأنّ النداء يتحقق بالصوت المرتفع وإن لم يُفهَم، والسبب في ذلك أنّهم صمٌ وبكمٌ وعُمي وبالتالي لا يعقلون، ولذلك فهم لا يسمعون للحق ولا

يقولونه بأفواههم ولا يبصرون طريق الهدى وهذا يعني عدم التعقّل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾.

صدر هذه الآية متطابق تقريبًا من حيث المعنى مع صدر الآية ١٦٨، وكلتاهما تؤسسان لقاعدة الحل التي هي من فروع قاعدة اليسر، وهو ما تمتاز به الشريعة الاسلامية السمحاء، فالأصل فيها حليّة جميع الأطعمة، في حال أنّ المحرمات قليلة جدًا.

فلا مانع من أن يستفيد الإنسان من جميع ما في الأرض من رزق اللّه سبحانه، فكله حلال طيب وقد مضى بيانه، وما على الإنسان إلا الشكر أي الاعتراف بأن كل ذلك الخير إنما هو من عند اللّه ﷻ، وبالتالي فالشكر مظهر من مظاهر العبادة، فمن يعبد اللّه تعالى حق عبادته سيجد نفسه تلقائيًا شاكرًا للّه ﷻ.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾.

و﴿إِنَّمَا﴾ في صدر الآية هنا إشعار بندرة وقلة المحرمات، فكل شيء حلال ما عدا ﴿الْمَيْتَةَ﴾: وهو الحيوان الذي مات حتف أنفه أو ذُبح على غير الطريقة الشرعية، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ﴾: من الاستهلال أي ما بُدِئَ فيه بالتسمية لغير اللّه سبحانه.

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: باغٍ من البغي أي لم يكن مريدًا للحرام مستحِّلاً له، ولا متعدٍّ للحد الجائز في حال الاضطرار وهو مقدار الضرورة فقط، فإنه يجوز له الأكل من دون أن يكون مأثومًا، ولو تجرأ أحد ثم تاب فإن اللَّه سبحانه يستر عليه ويرحمه بالعفو عنه والإنعام عليه.

وهذه الآية متطابقة من حيث المعنى والكثير من التفاصيل مع الآية ١٤٥ من سورة الأنعام، وسيأتي هناك الحديث عن بعض الاضافات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾.

صدر هذه الآية فيه شيء من التطابق مع الآية ٧٩ والاختلاف في الموضوع، فهناك كان والموضوع اختلاق تعاليم ونسبتها للَّه سبحانه، والموضوع هنا التغطية على التعاليم وكتمانها، وفي الموضعين الهدف الحصول على مكاسب قليلة لا قيمة لها. وقد كشفت الآية أن مآل من يقوم بالكتمان أمور أربعة:

﴿إِلَّا النَّارَ﴾: فما يأخذونه من ثمن كالأموال والمناصب وما يرجونه كالوجاهة يصبح يوم القيامة نارًا تتقِد في بطونهم.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾: أي يهملهم ويُعْرِض عنهم، وفي ذلك إشارة إلى أنّ اللَّه سبحانه يكرم عباده المؤمنين يوم القيامة بتكليمهم كما كلّم نبيّه موسى عليه السلام.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا ينمّيهم ذاتًا ولا يزدهم عطاءً عبر تطهيرهم وتنقيتهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: ويستحقون بذلك عذابًا وجعه شديد.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)﴾.

﴿اشْتَرَوُا﴾: باعوا الهدى بالضلالة، وباعوا المغفرة وهي ستر الذنوب ونسيانها بالعذاب، أي استبدلوا الذي فيه الهداية والمغفرة بالذي فيه الضياع والعذاب.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ﴾: أي ما أعجب صبر الذين يكتمون تعاليم السماء على النار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾.

﴿اخْتَلَفُوا﴾: أي اختلفوا فيما بينهم في شأن القرآن وهل أنّه من كتابة النبي محمد ﷺ وكلامه؟ أو أنّه أخذه من بعض أهل العلم كأهل الكتاب أو غير ذلك؟ هؤلاء في شقاق، أي كلٌّ منهم في شِق وجهةٍ بعيدة عن الحق، لأنّ القرآن كلام اللَّه سبحانه وقد نزَّله على نبيه المصطفى ﷺ بالحق. وقيل بأن المراد بالكتاب التوراة، وقد نزَّلها اللَّه تعالى على نبيه موسى بالحق وما فيها حق، لكن هؤلاء اختلفوا فيها ونسبوا لها ما ليس فيها.

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾.

﴿الْبِرَّ﴾: الخير وكل طاعة للَّه ﷻ.

﴿أَن تُوَلُّوا﴾: فليست الطاعة الحقيقية للَّه ﷻ في التوجّه أثناء العبادة باتجاه الكعبة أو بيت المقدس كما يزعم اليهود، فلا التوجّه في حد نفسه هو الطاعة الحقيقية ولا العبادة نفسها، وإنما الطاعة الحقيقية تبدأ بالاعتقاد الجازم باللَّه سبحانه كخالق لهذا الكون وإله ورب للخلق، وبيوم الرجوع إليه والوقوف بين يديه للحساب، وبملائكته الموكَّلين من قبله عزت قدرته وجلت لادارة شؤون الكون، وبكتبه الحاوية لتعاليمه وأحكامه، وبأنبيائه ورسله عليهم السلام كوسائط بينه جل شأنه وبين العالم الإنساني، وبجملة من التشريعات الاجتماعية والفردية.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: بالرغم من حبّه للمال، أو حبًّا للَّه ﷻ.

﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾: الذين لهم قرابة معه كالأرحام.

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: الذين فقدوا آباءهم.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: المسكين هنا يشمل الفقير الذي لا يملك قوت سنته، والمسكين الذي لا يملك قوت يومه.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: أي ابن الطريق وهو المسافر الذي انقطعت به السبل فلا طريق له للحصول على المال.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾: عنوان أعم من المساكين، فهو يشمل كل من يطلب مساعدة مالية ولو لم يكن محتاجًا كما لو كان الطلب لعمل خير.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: في عتق الرقاب وهم العبيد والإماء.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: أتى بالصلاة بتمام شروطها، وأوصل الزكاة إلى مستحقيها.

﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾: سواءً عاهدوا اللَّه سبحانه بمثل النذر أو عاهدوا أحدًا من البشر فإنّهم يفون أي يتمّون ويكملون ما ابتدأوه.

﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: البأساء: الفقر، والضراء: المرض، والبأس: الحرب. فلا يتذمرون في هذه الحالات وإنما يسلمون الأمر للَّه سبحانه ويقومون بما يستطيعون.

﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾: صدقوا في انتمائهم للدين فطابقت أفعالُهم أقوالَهم. وذلك يدل على تقواهم ومراعاتهم الدقيقة لضوابط العلاقة مع اللَّه سبحانه، الذي هو بعينه مقتضى الخوف منه جلت قدرته.

وصايا اجتماعية للمجتمع المؤمن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾.

﴿الْقِصَاصُ﴾: تتبّع الأثر لأخذ الحق، أي تتبّع أثر القاتل لأخذ الحق منه، وفي القصاص لا يُقتل الحر بالعبد وإنّما يُؤْلَم بالضرب ويدفع الدية، والرجل لا يُقتَل بالمرأة ولو أراد أولياء دم المرأة قتل الرجل القاتل فيجب عليهم دفع نصف الدية، ولو عفى أولياء الدم في جميع صور القتل وطالبوا ببعض الدية فينبغي أن يطالبوا بها برفق، والمطَالَب بالدية ينبغي أن لا يماطِل وإنّما يحسن في دفعها. كما أنّ ولي الدم الذي عفا لا يجوز له التعدي بعد ذلك بالقتل والإيذاء كما في الرواية الصحيحة عن الصادق عليه السلام.

﴿أَخِيهِ﴾: ولي الدم.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ﴾: الظاهر أن اسم الاشارة يعود إلى العفو ونتائجه، وهو مظهر من مظاهر اليسر في الشريعة.

﴿بَعْدَ ذُلِكَ﴾: بعد العفو والمطالبة بالدية.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾.

﴿حَيَاةٌ﴾: فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «القتل يُقِلُّ القتل»، أي أنّ القصاص يحول دون التمادي في إراقة الدماء، فيؤدي ذلك إلى المحافظة على حياة الناس.

﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول الخالصة النقيّة لأنّ اللُّب من الخلوص والجودة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تحذرون وتخافون من إراقة الدماء، وهو يجر إلى الخوف من اللّه سبحانه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

إذا أحسَّ الإنسان بدنو أجله وكان عنده مالٌ يُستحبُّ له - لأنّ ﴿كُتِبَ﴾ هنا بمعنى شَرّع وهو أعم من الوجوب والاستحباب- أن يوصي من ثلثه للوالدين والأقرباء سواءً كانوا من الورثة أو لم يكونوا، ولكن بالمستوى المتعارف الذي لا يلزم منه إجحاف بحق الآخرين خصوصًا الورثة.

﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾.

﴿بَدَّلَهُ﴾: من بدّل الوصية وعبث بها من بعد ما سمعها ووعاها.

﴿إِثْمُهُ﴾: فإن إثم التبديل على من بدَّل، لا على من أوصى، ولا يمكن الفرار من تبعات الإثم لأن الرقابة الإلهية دقيقة، فاللَّه سبحانه يسمع كل همس ويعلم النيات الكامنة فيه.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾.

﴿جَنَفًا﴾: ميلاً عن الحق على وجه الاشتباه.

﴿أَوْ إِثْمًا﴾: ميلاً عن الحق على وجه العمد، ويشمل أيضًا ما لو أوصى بفعلٍ حرام.

الخوف هنا بمعنى الظن المفيد للاطمئنان ويُعَامَل عند العرف معاملة العلم، وقد استُعمِل الخوف هنا لأنّ آثاره غير واقعة فعلاً وإنما تظهر في المستقبل حسب العادة، فالوصي في هذه الحالة يجوز له تبديل الوصية من خلال الإصلاح بين الورثة بالشكل الذي يتوافق مع الشرع، لا من خلال التصرّف العشوائي في الوصية بعيدًا عن رضا الورثة. ومثل هذه الأخطاء مغتفرة فإن اللَّه ﷻ يصفح عباده ويستر على ذنوبهم ويرعاهم بلطفه ورحمته.

تشريع الصيام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾.

هذا تشريف لأمّة النبي محمد ﷺ حيث فرض اللَّه ﷻ عليهم صيام شهر رمضان بالخصوص كما فرضه على الأنبياء السابقين عليهم السلام لا على أممهم، وأمّا ما فرضه سبحانه على الأمم فصوم بطريقةٍ أخرى وأيامه أكثر وليس شهر رمضان. وإنما شُرِّع الصوم وفي الزمن المخصوص ليكون محطَّة يتزوَّد فيها الإنسان بطاقة إيمانية تجعله دائمًا من أهل الورع والخشية من اللَّه سبحانه.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾.

﴿أَيَّامًا﴾: مفعول به منصوب لفعل الصيام، أي كتب عليكم أن تصوموا أيامًا.

﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾: قلائل لأنّ الذي يُعَدُّ إنّما هو القليل.

﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: أي مسافر، لأنّ المسافر كأنّما ركب الطريق.

﴿فَعِدَّةٌ﴾: مبتدأ لخبر محذوف وهو (عليه)، أي فعليه عدّة أيام يقضي فيها الصوم الذي فاته بسبب المرض أو السفر، والعدّة هنا تعني بعدد أيام الإفطار.

﴿يُطِيقُونَهُ﴾: أي الذين كانوا يطيقون الصيام ولهم قدرة على الإمساك ثم أصبح فيه حرج وعسر عليهم، فهؤلاء بإمكانهم الإفطار ثم دفع فدية من الطعام للمسكين وهي كيلو إلاّ ربعًا من الرز أو الحنطة مثلاً، بهذا ورد في الأخبار الصحيحة عن الإمام الصادق عليه السلام. واحتمل بعض المفسّرين أنّ هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها، إذ إنّها تعني أنّ القادر على الصيام في بداية نزول تشريع الصيام كان مخيّرًا بين الصوم أو دفع الفدية، ثم نُسِخَ ذلك بقوله سبحانه ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾: من تطوّع بإعطاء أكثر من مُد أو أكثر من مسكين فهو أكثر ثوابًا وأجرًا.

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُم﴾: مع ذلك فلو كان في الصيام مشقّة قليلة فقط فالصوم خيرٌ وأفضل، إذ في الصوم مصالح ومنافع عظيمة قد لا تعلمونها.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾.

﴿فَمَن شَهِدَ﴾: فمن حضره الشهر وكان حاضرًا وجب عليه الصيام.

حالة القرآن أنّه هداية للناس وسائر البشرية للخير، كما أنّه يحتوي على آيات واضحات من التعاليم والأحكام والقوانين التي تقود البشرية إلى الهداية والرشد وتفرِّق لهم بين الحق والباطل، والظاهر أنّ ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ عطف بيان لما قبلها ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

﴿فَمَن شَهِدَ﴾: فمن حضره الشهر وكان حاضرًا وجب عليه الصيام.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: قضاء ما فات بسبب المرض أو السفر تيسير من اللَّه سبحانه إذ في الصيام في الحالتين عسرٌ وحرج، وإنّما وجب القضاء لإكمال عدد أيّام الشهر، ولما فيه من تكبير وتعظيم اللَّه على هدايته لنا بصيام هذا الشهر حيث إنّ الصيام الناقص فيه هتكٌ واستخفاف، وهذا التكبير مصداقٌ للشكر.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: عدم الرؤية المباشرة قد تعطي الإنسان إنطباعًا بالبُعد، لكن الأمر ليس كذلك مع اللَّه سبحانه، فهو أقرب للإنسان مما يتصور، ولذلك يحتاج إلى تعليم بهذه الحقيقة، فسؤالهم دليل وجود مثل هذا التوهم، ولابد من دفعه بالتعليم، أي علمهم يا رسول اللَّه بأن اللَّه قريب منهم.

﴿أُجِيبُ﴾: فعل مضارع يفيد الاستمرار، فاستجابة الدعاء من قبل اللَّه ﷻ لا تنقطع أبدًا.

﴿الدَّاعِ﴾: حُذِفت الياء لأنّها تشمل كل داعٍ وليست خاصةً بداعٍ بعينه أو بدعاءٍ خاص.

﴿دَعَانِ﴾: حُذِفت ياء المتكلم لأنّ أغلب العرب يحذفونها في الوقف.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾: فليستجيبوا لتعاليمي وتشريعاتي، أي ليطيعوا.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: أي ليثقوا بإجابتي لدعائهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: بالطاعة والثقة يمكن للإنسان أن يسلك طريقًا مستقيمًا يؤدي للخير والصلاح.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾.

﴿الرَّفَثُ﴾: ما يُسْتَحْيا من إظهاره، من الكلام والأفعال، ومن أجلى مصاديقه جميع ما يريده الرجل من المرأة والمرأة من الرجل من الجماع والتقبيل واللمس وغيره، لكنّه خُصَّ هنا بالجماع، وما يؤدي لنتيجته، وقد أصبح جائزًا في ليالي الصيام كليالي شهر رمضان المبارك بعد أن كان محرَّمًا.

﴿لِبَاسٌ﴾: هذا راجعٌ لجهتين: الأولى حاجة كل زوج للآخر كحاجته الأساس للّباس الذي يستره، والثانية اللباس يحفظ الإنسان من عوامل الطبيعة وكذلك الأزواج يحفظ كلٌّ منهم الآخر، فكل زوج حاجة ملحّة للآخر تستره

عن الحرام وتحفظه عن مكاره الحياة وصعوباتها، وهذا التعبير إخباري في سياق الإنشاء، أي هكذا ينبغي أن يكون كل من الزوجين للآخر.

﴿تَخْتَانُونَ﴾: من الاختيان وهو فعلٌ اختياري يحصل عن قصد، وفيه مفاعلة بين طرفين أو أكثر، وهذا ما يميّزه عن الخيانة، وهو بمعنى النقصان أي ينقص بعضكم بعضًا في الوفاء، والمفاعلة هنا بين الإنسان ونفسه، وكأنّ الإنسان في صراع مع نفسه عند التفكير في ارتكاب الحرام.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾: تاب بمعنى قَبِلَ رجوعكم فالتوبة بمعنى الرجوع، وعفا أي تجاوز عن ذنبكم السابق، ولعلّها هنا تشمل تجاوز الحكم السابق وهو الحرمة إلى الحكم الجديد وهو الحلية. فالتوبة والعفو تشمل هنا الذين تجاوزوا الحكم في فترة المنع.

﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾: من ملامسة البشرة للبشرة وإلصاقها، ويُراد به هنا الجماع.

﴿وَابْتَغُوا﴾: من الاستمتاع والوُلْد.

﴿الْخَيْطُ﴾: لأنّ ضياء الفجر وظلام الليل يمتدان في أفق السماء كالخيط، و﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ تعود إلى الخيط الأبيض، فيجوز تناول الأطعمة طوال الليل إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الفجر ويتميز عن الخيط الأسود وهو الليل، أي إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر امسكوا عن المفطرات في تمام اليوم الذي ينتهي مع الغروب.

﴿عَاكِفُونَ﴾: الاعتكاف بمعنى الحبس والمكوث في المكان. ولا يجوز ممارسة الجنس بين الزوجين أثناء الاعتكاف في المساجد.

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: أي ابتعدوا عنها ولا تتعدّوا عليها، فالأحكام كالحدود المرسومة بين بلدين يجب التقيّد بها وعدم تجاوزها. وأحكامه سبحانه جزء من آياته العظمى في الحياة بيَّنها بوضوح وأزاح عنها كل أنواع الغموض لجميع الناس، رجاء أن تكون سببًا لتزكية نفوسهم انطلاقًا من خشيتهم من اللَّه سبحانه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾.

فالاحتيال والسرقة وشبههما هدفه في النهاية الأكل، وبالباطل أي بغير وجه حق، كما إذا حصل بواسطة إلقائها ورفعها إلى القضاة واستعمال شهادة زور وهو الإثم هنا مع العلم والعمد رغبةً في أخذ حق لفئة من الناس.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾.

﴿الْأَهِلَّةِ﴾: جمع هلال، وهو يعني بداية ظهور القمر بشكلٍ واضح، وإنّما اشتُرِط الوضوح لأنّ الاستهلال بمعنى رفع الصوت ومنه الإهلال بالحج برفع الصوت بالتلبية. والظاهر من الآية أن المسلمين كانوا يسألون النبي ﷺ عن الأهلة من حيث الأهمية والضرورة في نظر الدين وعن أحكامها.

﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾: أي أزمنة ومواعيد لمعاملات الناس

كالديون، ولموسم الحج لأن المناسك موقَّتة بأوقات فالوقوف بعرفات في التاسع من شهر ذي الحجة، ورمي الجمار يوم العاشر وهكذا.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾: لأنّهم كانوا إذا أحرموا يدخلون أخبيتهم من خلفها لا من الباب، ظنًّا منهم بكونها من البر أي من الدين بينما هي مجرد بدعة، وأمّا الدين فهو التقوى وليس تصرفات سطحية، ومع ذلك يجب ترك هذه البدعة بالدخول من الأبواب. وبناء عليه يجب التركيز على مواطن التقوى الحقيقية لا الأمور السطحية والتقاليد البعيدة عن الدين، فإن هذا المنطق هو الطريق إلى الفلاح والنجاح الدائم.

أخلاقيات الدفاع عن النفس

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾.

فالقتال دفاعيٌّ فقط لا هجومي ابتدائي، ويلزم أن يكون بهدف إلهي فقط، وبشرط عدم التعدي عن الحدود الدفاعية.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: هذا النص خاصٌّ بزمانه ومورده وليس نصًّا دائميًّا، ومتعلقٌ بالذين يشكِّلون خطرًا على المسلمين بسبب إصرارهم على مقاتلتهم، وليس مطلقًا أيضًا وإنّما في المكان الذي تجدونهم يقاتلونكم فيه، بمعنى أينما تجدونهم يقاتلونكم جاز لكم قتالهم لا مطلقًا، و﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي تتمكّنون منهم بسرعة وسهولة.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾: بمعنى جواز استرجاع الحقوق المسلوبة، فكل الأماكن التي استولى عليها المشركون يجوز للمسلمين إخراج المشركين منها وإعادتها إلى أملاكهم من جديد، وهو تأكيدٌ على ما تقرّه جميع القوانين الإنسانية، وهذا الحكم إنّما يُطبّق على المعتدين على الحقوق فقط، ولا علاقة له بالكافر والملحد وما أشبه، فالدين يقرّهم على أملاكهم ويرعى حقوقهم، وحتى بالنسبة للمعتدين فالآية تنصّ على إخراجهم من الأماكن التي استولوا عليها فقط لا من جميع الأماكن التي امتلكوها بالحق، بل في الرواية أنّ النبي ﷺ لم يسترجع داره التي استولى عليها المشركون في مكّة عندما دخل مكّة فاتحًا في السنة الثامنة من الهجرة مع أنّه كان قادرًا على ذلك.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾: هذا ضربٌ لقاعدة وتطبيق على مورد، فأي نوع صغير أوكبير من أنواع الفتن سواءً كان سياسيًا أو اجتماعيًا أو فكريًا أشدُّ، أي آثاره السلبية أخطر من القتل المادي، لأنّ الفتنة تزعزع استقرار المجتمع وتتسبّب في نشر القتل والفوضى وهتك الحرمات. ومورد الفتنة في الآية ما قام به المشركون من إيذاءٍ للمسلمين والتحريض عليهم وطردهم وإجبارهم على الهروب من مكة، فهذا العمل أشد وأخطر من القتل، وسيأتي في آيةٍ أخرى من هذه السورة أنّ الفتنة أكبر من القتل وسيجيء بيان الفرق.

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾: الفارق بين المسجد الحرام -ويُراد به منطقة الحرم المكي لا خصوص المسجد، فقد ذُكر الجزء وأُريد به الكل- وبين غيره من الأماكن، أنّ بداية الدفاع عن النفس في المسجد الحرام لا تجوز إلاّ بعد الشروع الفعلي بالقتال من قِبَل المعتدي العازم على القتل وإزهاق الأنفس، بينما في

غيره يجوز الدفاع عن النفس حين يستنفر المعتدي للقتال ويتربص للمؤمنين بهدف الهجوم عليهم والاستيلاء على أملاكهم وهتك أعراضهم ومباغتتهم، ولا يكفي في ذلك مجرد الظن بل لا بد من العلم بأنّهم يقاتلون اعتداءً.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾: أي أنّ هذا الإجراء جزاء الكافرين المعتدين فقط لا مطلق الكافر والملحد، بدليل ما جاء في صدر الآية السابقة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، ولما سيأتي في الآية التالية.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢)﴾.

فإذا توقفوا عن مقاتلتكم والتربّص بكم فلا تقاتلوهم واعفوا واصفحوا عن الماضي، وهذا ما يدلّل على أنّ الحروب إنّما هي دفاعية فقط.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾.

بالإضافة إلى أنّ القتال والحرب ليسا إلاّ خيارات دفاعية، فإنّهما أيضًا لا يكونا بمعزلٍ عن الأهداف السامية التي تصب في خدمة الإنسانية، أي أنّ القتال مع أنّه دفاعي فهو ليس عبثيًا وإنّما يكون لتحقيق هدفين، الأول القضاء على الفتنة التي زرعها المعتدون، وهو يعني المحافظة على الاستقرار الاجتماعي، والثاني أن يكون طريقًا للتعريف بالدين وأنّه دين السلام والقيم الأخلاقية وذلك من خلال المحافظة على الموازين وقيم العدل وعدم الاعتداء، ولذلك بمجرد أن يتوقف المعتدون وينتهوا يحرم الاستمرار في القتال، لا يُشَرَّع مرةً أخرى إلاّ إذا تجاوزتْ فئة أخرى واعتدتْ ظلمًا وعدوانًا،

فآنئذٍ يجوز مقاتلتها دفاعًا عن النفس.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾.

الأَشْهُر الحُرُم هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وقد ذهب كثير من المفسّرين إلى أن المراد من قوله سبحانه ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أنّهم كما بادؤوكم بالاعتداء عليكم في شهرٍ حرام من هذه الأشهر الأربعة، فأنتم أيضًا يجوز لكم أن تبادؤوهم بالاعتداء عليهم في شهرٍ حرامٍ آخر، لكن الآية لا تحتمل هذا التوجيه خصوصًا بملاحظة السياق، والأقرب أنّ مفادها إذا اعتدوا عليكم في شهرٍ حرام جاز لكم الدفاع عن أنفسكم في الشهر نفسه ولو كان شهر حرام. وليس في ذلك تسويغ للبدء بقتال في شهر حرامٍ آخر من باب المقاصّة والرد بالمثل. وما ذكروه من مثال وهو مقابلة منعهم من العمرة في الحديبية في السنة السادسة من الهجرة بدخولهم مكة معتمرين في السنة السابعة لم يكن اعتداءً ونوعًا من الحرب، وإنّما جاء طبقًا لاتفاق مسبق مع قريش، ولهذا فهو ليس مصداقًا للمقاصّة.

ولو أنّ أحدًا هتك حرمةً -وهي كل ما يجب حفظه ورعايته ولا يجوز الاعتداء عليه- جاز أخذ الحق منه بالمثل، فلو سلب مالاً جاز الاقتصاص منه بأخذ المقدار الذي سلبه منه، ولو هتك حرمة مكان كالبيت الحرام بالقتل أو الضرب جاز الاقتصاص منه بالرد عليه ولو في البيت الحرام.

لكن ليس في الآية إطلاق يشمل كل حالة، فمثلاً لو زنا بابنة لشخصٍ

ما لا يجوز الزنا بابنته، ولو قتل ابنًا لشخصٍ ما لا يجوز الاقتصاص منه بقتل ابنه، ولو فعل فاحشةً بشاب لا يجوز فعل الفاحشة به، وإنّما في مثل هذه الحالات يُقْتَصُّ منه بمعاقبته بأنواع العقاب المقرَّرة لهذا النوع من الحالات.

وقد عُبِّرَ عن الاقتصاص وأخذ الحق بالاعتداء لأنّه مقابلة بالمثل، ولأنّ فيه هتكًا لحرمة المعتدي الأول جزاءً على فعله واعتدائه، لكن الاقتصاص لا يجوز أن يتجاوز الحد بل يجب أن يكون مساويًا لمستوى الاعتداء، ولذلك قالت الآية ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ولم تقل (كما اعتدى)، لأنّ التعبير الثاني يعني كما أنّه اعتدى عليكم أنتم أيضًا اعتدوا عليه، فاعتداء باعتداء بلا ضرورة أن يكون هناك تماثل وتساوٍ بين الاعتداءين، أمّا التعبير الأول فيعني أنّ الاعتداء والاقتصاص يلزم أن يكون مساويًا ومطابقًا للاعتداء الأول، أي يكون مثله لا أكثر، ولأنّ عدم تجاوز الحد يتطلّب إرادةً قوية كان لا بد من التقوى.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾.

الإنفاق والعطاء يجب أن يكون في سبيل اللَّه ﷻ لا غير، وهو عام يشمل العطاء من المال ومن الأنفس والأوقات وما إلى ذلك، لكن الإنفاق الذي شُرِّع للحفاظ على المصالح العامة واستقرار الحياة الإنسانية لا يصح أن يصل إلى درجة مفرطة يلزم منها الإضرار بالمنفِق وهلاكه، سواءً كان الإضرار بمعيشته أو بحياته، بل ينبغي التوازن في الإنفاق بالشكل الذي يحد من حالات التهوّر عند الإنسان ظنًّا منه أنه يَفعل الحسن، مع ذلك لا ينبغي ترك الإحسان وهو هنا بمعنى الزيادة في الإنفاق من غير إفراطٍ مؤدٍّ للهلاك.

تشريع الحج

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾.

من هذه الآية وحتى الآية (٢٠٣) تحدثنا الآيات عن الصورة العامة للحج وأخلاقياته وأحكامه وبعض الطوارئ التي قد تتخلّل بعض المناسك.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: أدّوهما بصورةٍ تامة جامعة للأجزاء والشرائط والأحكام والأخلاقيات، وقد يُسْتَدَل بهذا المقطع القرآني على وجوب إكمال الحج والعمرة بعد الشروع فيهما، كما يدل على وجوب حجة وعمرة في العمر على كل إنسان، وكل ذلك يجب أن يكون قربةً للّه تعالى.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: وإن كان مفهوم الإحصار

متعلّقًا في الروايات بالحالات المَرَضِيَّة ومفهوم الصد متعلقًا بالمنع من عدوٍ وشبهه، لكن المراد بالإحصار هنا بحسب الظاهر أي مانع من مرض أو عدو أو غير ذلك بدليل ما سيأتي في الآية نفسها ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾، فمن تعرَّض لأحد هذه الموانع وأراد التحلّل من الإحرام فعليه أن يذبح ما أمكنه الحصول عليه من أنواع الهدي بسهولة ويسر، سواءً كان إبلاً أو بقرًا أو غنمًا.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾: أي ولا تحلّوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير -وإنّما ذُكِرَ الحلق لأنّه أكمل الأفراد- إلاّ بعد أن يصل الهدي المذبوح إلى مكانه، أكان مكة أو منى على الاختلاف بين ما كان الإحرام فيه للحج أو للعمرة، وتفصيل ذلك موكول للبحث الفقهي.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: من لم يستطع تأخير الحلق إلى أن يبلغ الهدي محله سواءً بسبب مرض أَلَمَّ به يضطره للمبادرة بالحلق أو بسبب بعض أنواع الأذى كما لو أُصيب بجرح أو ابتلي بقمل أو بشيءٍ من هوام الطريق وشبه ذلك، يجوز له تقديم الحلق ولكن يجب عليه تخييرًا أن يقدِّم فدية وهي عوض مقابل تقديم الحلق، وموارد التخيير صيام ثلاثة أيام، أو التصدّق على عشرة مساكين لكل مسكين مُدٌّ من الطعام كالرز والحنطة، أو يتقرّب إلى اللّه سبحانه عباديًا بنسيكة وهي الذبيحة وهي مفرد نُسُك، وسُمِّيتْ بذلك لأنّها مما يُتَقَرَّب به إلى اللّه ﷻ.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ... حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: وأمّا من لا يصادفه إحصار ويكون طريقه سالكًا فإن كان نائيًا ليس من أهل مكة فوظيفته حج التمتع، وذلك بأن يأتي قبل الحج بعمرة تمتع ثم يحرم لحج التمتع من مكّة ويذبح هديًا بعد الفراغ من أعمال

منى، ومن لم يتمكّن من الهدي فيجب عليه بدلاً من ذلك أن يصوم عشرة أيام، ثلاثة أيام منها يصومها في الحج وسبعة أيام بعد رجوعه إلى وطنه، وأمّا إن كان مجاورًا أي من سكّان مكة فوظيفته حج القران أو الإفراد، وفي كلٍّ منهما يُقدِّم الحج على العمرة، كما ليس في الإفراد هدي.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: اجعلوا بينكم وبين اللَّه سبحانه وقاية تحول دون استحقاقكم للعقاب فإنّ عقابه شديد، والتوقّي هنا بالالتزام بالتعاليم وعدم التلاعب بالأحكام. واختتام الآية بالتحذير من العقاب إشارة إلى أنّ أحكام الحج إلزامية ولا يجوز فيها أي نوع من أنواع التسيّب والتمييع والإمالة إلى المصالح الخاصة.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾.

لا يقع الحج إلاّ في أشهر ثلاثة معينة من قبل اللَّه سبحانه ومعلومة لدى الناس جميعًا، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، والمقصود هنا أنّ عمرة التمتع لا تقع إلاّ في هذه الشهور وهكذا إحرام حج القران والإفراد، وأمّا بقية أعمال الحج فلا تقع إلاّ في شهر ذي الحجة فقط، ومن أحرم في هذه الشهور وفرض الحج وأوجبه على نفسه فلا بد أن يلتزم ببعض الأحكام، ومنها على سبيل التأكيد: ترك الجماع، وترك العصيان والخروج عن الطاعة خصوصًا بمثل المفاخرة والسباب والكذب، وتجنّب الخصومات خصوصًا الناتجة عن المراء والجدل استعانةً بحلف اليمين، وبالتالي فإنّ ما يفعله الإنسان من وجوه الخير سواءً في الحج أو في غيره فإنّ اللَّه سبحانه يعلمه ويكافئ عليه،

وذلك تشجيع على كتمان عمل الخير، وأفضل وجوه الخير التزوّد بالتقوى بالمعنى المشار إليه في الآية السابقة، والدعوة إلى التقوى موجهة خصوصًا إلى أصحاب العقول الخالصة النقية لأنّهم من يدرك أهميتها، والتأكيد على التقوى هنا لعله لأجل أنّ الحج مُحَصِّلٌ لها.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)﴾.

﴿أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لا يوجد إثم ولا حرمة في التكسّب والاتّجار أثناء أداء مناسك الحج كما كان يعتقد بعض أهل ذلك الزمان حيث كانوا يمتنعون عن التجارة طيلة العشرة الأولى من شهر ذي الحجة.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم﴾ الإفاضة مستعارة من إفاضة الماء وصبّه، والمراد هنا إذا اندفعتم من عرفات مسرعين كفيضان الماء فتوجهوا إلى المشعر الحرام واشتغلوا بذكر اللّه سبحانه في تلك الأرض فإنّها أرض ذِكْر، واذكروا اللّه بالطريقة التي علّمكم وهداكم إليها وإن كنتم سابقًا تجهلونها بسبب تضييعكم للطريق الصحيح، ويحتمل أن يكون معنى ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي كما أنّه سبحانه علّمكم وأرشدكم إلى الطريق الصحيح فيجب عليكم ذكره وعبادته.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)﴾.

لأنّ بعض أهل الجاهلية كانوا يترفّعون عن الوقوف في عرفات بسبب

وجود بعض الفقراء وضعاف الحال ويقولون كيف نقف في مكانٍ واحد مع هؤلاء، لذلك كانوا يقفون بدلاً من ذلك في المشعر الحرام فقط، فجاء الأمر الإلهي بأنّ الإفاضة يجب أن تكون من عرفات باتجاه المشعر كما يفعل عامة الناس، ولا يكفي الوقوف في المشعر ابتداءً من دون وقوف بعرفات وإفاضة منها، واستغفروا اللَّه أثناء الإفاضة وهو المعنى العام لهذا المقطع، وأمّا الخاص فالاستغفار من تكبّرهم السابق.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾.

﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾: كان بعض الحجاج في الجاهلية إذا فرغوا من أعمال الحج يجلسون في منى يتفاخرون على بعضهم البعض بذكر آبائهم ومآثرهم، فأمرهم اللَّه سبحانه بالانشغال بذكر اللَّه ﷻ بالمستوى نفسه الذي يمجّدون فيه آباءهم أو أشد من ذلك لأنّ عطاءه سبحانه ومننه أعظم، وهذا تأكيد على أنّ منى موضعٌ للذكر.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا... وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: ذكر اللَّه سبحانه يجب أن يكون قائمًا على أساس الصدق، وهو الذكر الذي يثمر، لذلك فإنّ ثمة مَنْ يتعامل مع الذكر بصفته مولِّدًا لمصالح دنيوية فقط من دون أن يكون له أثر في تحصيل التقوى، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة من خلاق أي ليس لهم من نصيب وافر من الخير يوم القيامة، إذ لم يكن لهم خير في الدنيا مما

يُدَّخَر للآخرة.

ولكن ثمة من يطلب لدنياه عند الذكر ولا ينسى آخرته، فيطلب السعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا، كما يطلب رضوان اللَّه ﷻ والجنّة في الآخرة بحسب رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير معنى الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة، كما يطلب الوقاية من عذاب النار، أي أن يكون بينه وبين النار ما يقيه منها لأنّها على كل حال موجودة ولا يكفي الابتعاد عنها بل يلزم أن يكون بين الإنسان وبينها واقٍ يحول دون تأثيرها عليه، وهؤلاء لهم نصيب في الآخرة مما عملوه وكسبوه في دنياهم، والنصيب أعم من الخلاق وأوسع لأنّه لا يختص بالعمل الذي قُصِدَ منه الخير في الدنيا بل يشمل كل عمل وإن لم يكن قد لوحظ فيه جهة الخير والإحسان.

ومحاسبة هذين النوعين من الناس والفصل بينهم يحصل سريعًا لأنّه سبحانه سريع الحساب، بمعنى أنّ اللَّه ﷻ يحاسب الخلق دفعةً واحدة كما يرزقهم دفعةً واحدة، ومحاسبتهم بأجمعهم في مقدار لمح البصر كما في الروايات.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

الأيام المعدودات هي أيام التشريق أحد عشر وثاني عشر وثالث عشر من ذي الحجة، وينبغي التشاغل فيها بالذكر وهو مطلق ذكر اللَّه سبحانه، ومن مصاديقه الخاصة بتلك الأيام بالنسبة لمن يكون في الحج التكبير من

صلاة الظهر يوم العاشر إلى صلاة الفجر يوم الثالث عشر، وصيغة التكبير (اللَّه أكبر اللَّه أكبر، لا إله إلاّ اللَّه، واللَّه أكبر وللَّه الحمد، اللَّه أكبر على ما هدانا، اللَّه أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام)، والحاج مخيّر بين أن يتعجَّل فينهي حجّه يوم الثاني عشر وذلك بالنفر من منى بعد الظهر من يوم الثاني عشر، أو يتأخّر فينفر بعد الفجر من يوم الثالث عشر، وهذا التخيير لمن اتقى الصيد والنساء أثناء الإحرام أو في الحرم، وأمّا من اصطاد أو قارب النساء فيجب عليه البقاء إلى يوم الثالث عشر، والمخيّر بأي خيار عمل فإنّه يعود إلى وطنه ولا إثم عليه، أي يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وينبغي للحاج أيضًا أن يتقي اللَّه في هذه الأيام ويعلم بأنّه سيُحشَر يومًا ليُحاسَب.

نموذجان للحق والباطل

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)﴾.

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: وهو نموذج للمنافق لأنّه يُظْهِر لك كلامًا يمكن أن تُعْجَبَ به لما فيه من المدح والثناء فيما يتصل بالأمور الدنيوية، أو أثناء تعامله في الحياة الدنيا.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ﴾: بأن يقول: اللَّه يشهد على أنّ كلامي متطابق مع ما في قلبي.

﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: بينما هو في الحقيقة شديد العداوة.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾.

وإذا أعرض وولّى إلى مكانٍ آخر، أو أصبح متوليًا على شيء، كانت معاملاته وأفعاله وسائر مواقفه إفسادًا لكل شيء، فهو يسعى لإهلاك وتدمير

الحياة الاقتصادية المتمثّلة آنئذٍ في الحرث والزراعة، وزعزعة الحياة الاجتماعية وهي النسل. والمشيئة الإلهية تأبى الفساد ولا ترتضيه ولذلك تعاقِب عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾.

وإذا نُصِحَ بالتقوى لأنّ فساده ظاهرٌ للجميع تأخذه العزّة والكبرياء وحمية الجاهلية للقيام بالإثم من الإصرار والعناد والسباب، ومثل هذا تكفيه جهنم عقابًا وهي أسوء مكان يمكن أن ينتهي إليه الإنسان فيما لو كان باحثًا عن الراحة والاستقرار.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)﴾.

وهذا هو المؤمن الصادق، وقد نزلت هذه الآية في الإمام علي عليه السلام عندما بات على فراش النبي صلى الله عليه وآله في مكّة، فهو يبذل نفسه راجيًا الحصول على مرضاة اللَّه سبحانه لا لمطامع شخصية، ومن هكذا تكون حاله فإنّ اللَّه عزّ وجلّ يقابله باللطف واللين ولا يرهقه لأنّه باع نفسه للَّه عزّ وجلّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾.

أي ادخلوا في دين الإسلام فهو دين السلام، وقيل السلم من

الاستسلام، والأول أوجه، وكافّة بمعنى التزموا بجميع شرائع الدين، وقيل ادخلوا جميعكم، ولا تسيروا تبعًا في الخط الذي يسير فيه الشيطان، فإنّ عداوته لكم واضحة بيّنة ولذلك فهي لا تخفى عليكم.

نسيتُ أن أكتب تفسيرًا للآية ٢٠٩ المرفقة مع ٢٠٨. ولذا ينبغي إضافة هذه العبارة بعد (فهي لا تخفى عليكم):

ومع ذلك فلو أن أحدًا اتبع الشيطان من غير قصد فالرحمة واسعة، لأن زَلَّ في اللغة بمعنى استرسال الرِّجْل من غير قصد ولهذا فالزَّلَّة تعني الذنب من غير قصد. فمن زلّ باتباع الشيطان بلا قصد ولا إصرار بالرغم من وصول الأحكام والتعاليم الواضحة فعليه أن يعلم بأن الله سبحانه عزيز لا يُعجزه شيء ولا يغلبه أحد، وفي الوقت نفسه حكيم في تدبيره وفي تعامله مع خلقه، وذلك مشعر بالعفو والرحمة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)﴾.

انتقلت الآيات للحديث عن أنّ آيات اللَّه سبحانه واضحة وإنّما اللجاج والاستكبار من الكافرين لمصالح يبتغونها، لذلك جاءت الآية محذّرة، فهل ينتظر الكافرون كي يؤمنوا أن يأتيهم اللَّه سبحانه عيانًا في سحابٍ أبيض يظلّهم عن أشعة الشمس ومعه الملائكة، وإنّما ذُكِر الغمام لأنّه مشعرٌ بالرحمة، ولو حصل وجاء هذا النوع من السحاب فسيكون عذابًا يقضي به اللَّه الأمر، أي يحكم في هذا الأمر بإهلاكهم فإنّ سائر الأحكام في جميع الأمور تعود إليه سبحانه.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)﴾.

كمثال واقعي لما ذُكِر في الآية السابقة وأنّ البعض مهما رأى من آيات فإنّه يبقى على عناده ضرب اللّه سبحانه بني إسرائيل مثلاً، فقال للنبي صلى الله عليه وآله والمُعنَى بذلك قومه: اسأل بني إسرائيل عن الآيات الواضحات التي أتيناهم بها كفلق البحر مثلاً، ومع ذلك كان بعضهم يؤمن أو يقر وبعضهم يجحد كليًّا أو يبدّل ويعبث بالعقائد والتشريعات، وبالتالي فإنّ من يفعل ذلك ويستبدل نعمة اللّه سبحانه وهي الإيمان وتوابعه بالكفر، أو لا أقل يبدّل النعمة بأن يعبث بالإيمان ويطوّعه حسب هواه من بعد أن أُنزِل عليه واضحًا لا لبس فيه، فإنّه سيتعرّض للعقاب الشديد دنيًا وآخرة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾.

لم يزيّن الذين كفروا الحياة الدنيا من وحي أنفسهم وإنّما زيّنها لهم آخرون كزعمائهم وعلماء اليهود، والتزيين لا يعني أنّ الحياة الدنيا ليست جميلة وليست حسنة وإنّما إضافة زينة لها خادعة تبعد الإنسان عن الآخرة، وإلاّ فالآية تقول ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الكهف: ٤٦]، ولأنّ الدنيا زُيّنَت خطأً للكافرين صاروا يسخرون من المؤمنين لارتباطهم بالآخرة، لكن الذين اتقوا ربهم أعلى منهم يوم القيامة، وإنّما ذُكِر خصوص المتقين في الاستئناف بعد ذكر المؤمنين لأنّ التقوى لا تنفك عن الإيمان، وعطاء اللّه للمتقين لا يتقيّد بالحساب الدقيق بأنّ يكون هذا العطاء في مقابل

هذا العمل فقط وإنّما هو واسع.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾.

كان الناس قبل نبي اللّه نوح عليه السلام لا مؤمنين مهتدين ولا كافرين ولا مشركين، أي كانوا ضلاّلاً بمعنى أنّهم كانوا على الفطرة لا معرفة لهم بتفاصيل العقائد والتشريعات، فمن لم يكن على الهدى من هذه الجهة يُعتبر ضالاً، والهداية هذه إنّما تكون من عند اللّه سبحانه كما جاء على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [سورة الأنعام: ٧٧]، وقد روي ذلك عن الإمامين الصادقين عليهما السلام، فكان الناس آنئذٍ على هذا المستوى من الفهم، لا أنّهم كانوا متحدين متآلفين كما قد يفهم البعض، ثم بعث اللّه عزّ وجلّ الأنبياء عليهم السلام لهدايتهم عبر التبشير بالجنّة والنعيم لمن آمن والإنذار من النار والعقاب لمن جحد، وزوّدهم بكتبٍ سماوية فيها أحكام وتشريعات لجميع المسائل والموارد التي قد يختلفون فيها، ومع أنّ هذه الكتب واضحة إلاّ أنّ الناس جعلوها سببًا لاختلافهم من خلال تحريف معانيها بسبب ظلمهم ورغبتهم في الاعتداء والتسلّط على بعضهم البعض، لكن الذين تمسّكوا بحبل اللّه عزّ وجلّ وتركوا الحسد وابتعدوا عن الظلم هداهم لتشخيص الحق لأنّه سبحانه يكتب لمن يؤمن به ويستعين الهداية إلى الطريق السوي.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾.

هل تظنون أنّ دخول الجنّة بلا ثمن؟ وكأنّ في ذلك إشعارًا للذين يتذمرون ويحبطون عند الصعوبات، بل لا بد أن يمر عليكم ما مرّ على الأمم السابقة، فقد مسَّ المؤمنين منهم أنواع من الشدائد والأمراض واضطربوا من شدة الابتلاءات التي أُزعِجوا بها، إلى أن وصل الأمر بالرسول والمؤمنين الذين معه للإلحاح في طلب النصر وترقّبه، ونصرُ اللَّه سبحانه قريب لمن يترقبه وبعيد عن الذين يستبطئونه.

يسألونك عن أحكام الله

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾.

كان سؤال المؤمنين للنبي ﷺ عن الشيء الذي ينفقونه، فلم يحدّد الجوابُ نوعَ الشيء الذي يُنفَق، وإنّما وضع عنوانًا عامًا وهو الخير سواءً من مالٍ أو جهد أو شبه ذلك، ثم حددتْ الآيةُ جهةَ الإنفاق والمتمثّلة في الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والمسافر الذي فَقَدَ النفقة، والسبب في تحديد هذه الجهة لأنّ النفقة لا تقع صحيحةً إلاّ إذا وُضِعَتْ في مكانها الصحيح كما أشار الزمخشري وكلامه متين، ثم إنّ أي خيرٍ يفعله الإنسان سواءً كان نفقةً أو غير ذلك فإنّ اللَّه سبحانه يعلمه ويثيب عليه، وهذه قاعدة عامة والنفقة من مصاديقها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾.

أوجب عليكم الدين الدفاع عن أنفسكم بالقتال لأنّ المتربصين

بادؤوكم بالقتال مع أنّكم تكرهونه كراهيةً شديدة ولذلك عبّرتْ عنه الآية بالكُرْه، واستعمال المصدر في موضع الوصف يفيد المبالغة، و﴿وَعَسَىٰ﴾ الأولى لترجّي الخير، بينما الثانية للإشفاق، أي يُرجى أن يصبح ما تكرهونه من دفاعكم عن النفس مصدر خير وبركة، كما يُشفَق عليكم أن يكون ما تحبونه مصدر سوءٍ وشر، واللَّه سبحانه هو العالم بحقائق الأمور وما الذي ينفعكم أو يضرّكم، وبهذا فهو سبحانه لا يشرِّع لكم شيئًا إلاّ ما فيه صلاحكم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾.

بعث رسول اللَّه ﷺ سَرِيَّةً تراقب قوافل قريش، وكان على رأس السرية عبد اللَّه بن جحش، فأقبلت قافلة على رأسها عمرو بن عبد اللَّه الحضرمي، فقتل المسلمون عمرو وأسروا اثنين من الذين معه وقيل قُتِلا معه وأخذوا الغنائم، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر رجب وقيل كان آخر يوم من رجب، وكانوا يحسبونه آخر جمادى، فاتّهمت قريش رسول اللَّه ﷺ بأنّه استحلّ حرمة الشهر الحرام وكتبوا له بذلك، فجاء الأصحاب يسألون النبي عليه السلام عن الشهر الحرام وهل فيه قتالٌ أم لا؟ ولم يقر النبي ﷺ فعل أصحاب السرية ولذلك ردَّ الغنائم والأسرى إلى قريش، وبقي أصحاب

السرية ينتظرون نزول التوبة عليهم لأنّهم قَتَلوا في الشهر الحرام، ولأنّهم قَتَلوا بغير وجه حق حيث إن أصحاب القافلة لم يعتدوا عليهم، كما أنّ الآية لم تمضِ فعلهم بل يظهر منها الإنكار لأنّها اعتبرت الفتنة أكبر من القتل الذي قاموا به، ما يعني أنّ فعلهم كبيرٌ أيضًا.

ومع أنّ السؤال صدر من السملين إلاّ أنّ الجواب توجّه للإنكار على شناعة ما يقوم به المشركون، وفي السؤال ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من الشهر لأنّه سمة من الشهر وليس جزءًا حقيقيًا منه.

فجاء الجواب في الآية على لسان النبي ﷺ مفصَّلاً يبيِّن فيه أن الاعتداء بدأ من المشركين بأمورٍ كثيرة وكلّها أعظم من الخطأ الذي ارتكبه المسلمون، بل هو ما حرّض على ذلك، وتفصيل الجواب: إنّ المشركين هتكوا حرمة الشهر الحرام بالابتداء بشن حرب وقتال كبيرين، وسعوا لصد ومنع الناس عن العمل في سبيل اللَّه وأمروهم بالكفر، كما أنّهم كفروا باللَّه تعالى وكفروا بالمسجد الحرام من خلال هتك حرمته بوضع الأصنام فيه، وضيّقوا على أهل مكّة حتى اضطروهم للخروج منها وهو أكبر من القتل من حيث الحرمة، وأشاعوا الفتن من النزاعات والافتراءات وهو أكبر وزرًا من القتل، ولن ينقطعوا عن الاعتداء على المسلمين بالقتال ما لم يتمكّنوا من ردّهم عن دينهم لو كانوا يستطيعون ذلك.

ثم ينعطف الخطاب في الآية نحو المؤمنين محذِّرًا لهم من الارتداد بمؤامرات المشركين، فإنّ من يرتد عن دينه ويموت وهو مرتد تفسد وتبطل جميع أعماله في الدنيا والآخرة، وذلك بأن تصبح بلا قيمة لأنّ العمل مع الكفر لا ثمرة فيه، ومن يكون هكذا حاله فهو مخلَّد في نار جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾.

لما اتضح لعبد اللَّه بن جحش ومن معه الخطأ الذي ارتكبوه خصوصًا بعد قول النبي ﷺ لهم: «واللَّه ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام» صاروا يرجون أن يُوفّقوا للقيام بدور الدفاع عن المسلمين ولكن بالوجه الشرعي الصحيح، فجاءتهم البشرى بأنّ الذين آمنوا وهاجروا مع النبي صلى الله عليه وآله وبذلوا ما يستطيعون من جهد في سبيل إنجاح الدعوة الإسلامية وبناء المجتمع المتدين، وذلك في سياق التكفير عن أخطائهم، هؤلاء إنّما يرجون من اللَّه سبحانه الرحمة والصفح عن أخطائهم، ولذلك فإنّهم سينالون رحمة اللَّه وغفرانه، أي سيصفح عن أخطائهم وينعم عليهم بالخير من عنده لأنّه سبحانه غفورٌ حيم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾.

الابتداء من طرف المسلمين بالسؤال عن الخمر والميسر يشير إلى وجود ثقافة حول كراهية الخمر والميسر زرعها النبي ﷺ ليهيّئ المسلمين إلى تفهّم الحرمة، فهذه الثقافة التي أخذت في التعاظم في المجتمع الإسلامي دفعت بعض المسلمين للسؤال حول حكم الخمر والميسر، ومما قوّى هذه الثقافة الآثار السلبية المدمّرة التي شهدوها بشكلٍ واضح بفعل تعاطي الخمر ولعب الميسر الذي كان رائجًا في بعض الأوساط آنئذٍ.

وقد جاء الجواب بحرمة الخمر والميسر لأنّ ما فيهما ليس مجرد إثم وإنّما إثمٌ كبير، وهو تعبير يشير إلى الحرمة الشديدة، وإن كان فيهما منافع للناس كالأرباح بفعل البيع والشراء للخمر ولعب القمار، والممارسات الشهوية بالخمر واللهوية بالقمار، إلاّ أنّ ما فيهما من الإثم أكبر من حيث الخطورة والمضار من المنافع الظاهرية.

والخمر عبارة عن المشروب المسكِر المعروف، والميسر هو القمار، وسُمّي الميسر لما يكتنفه من يسرٌ وسهولة في الحصول على المال من غير جهدٍ ولا تعب، ولا أقل من كونه كذلك في نظر المقامر ولذلك يُقْدِم عليه، وإن كان قد تخلّله خسارة كبيرة.

والإثم يعني التباطؤ والتثاقل عن فعل الخيرات والتهاون بالأعمال الحسنة. والتهاون بالتعاليم والخيرات المترتب على شرب الخمر ولعب القمار كبير، وأكبر من أيّ منفعةٍ متصوَّرة، ولهذا غَلَبَتْ الحرمة.

وقد سألوا النبي ﷺ عمّا ينفقون من أموالهم، فأمره اللَّه سبحانه أن يخبرهم بأن ينفقوا العفو أي الوسط من غير إسرافٍ ولا إقتار، وبالمستوى الذي يكون فاضلاً عن مؤونتهم كي لا يضرّوا بحالهم ولا بمن تجب نفقتهم عليهم.

هكذا يبيّن اللَّه سبحانه لعباده الأحكام والآيات لعلهم يتفكّرون في دلالاتها وفلسفاتها ليستنبطوا الدروس والعِبر منها، سواء ما يتعلّق منها بالحياة الدنيا كالتسابق في فعل الخيرات أو بالحياة الأخرى كالثواب وشبهه.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾.

سألوا النبي ﷺ عن أمرٍ ابتلائيٍّ يتعلّق باليتامى، فمن كان يرعى أيتامًا ولهم أموالٌ عنده كيف يصرف عليهم؟ وهل يستطيع أن يخالطهم في المأكل والملبس وشبههما؟ وكان ذلك خشية من التصرّف بغير وجه حق في أموالهم، فجاء الخطاب بأنّ المحافظة على الأيتام وإصلاح حالهم فيه خير وثواب، وأفضل من تركهم بداعي الخشية من الوقوع في محذور التصرّف غير المشروع في الأموال. كما يمكن الخلط بين أموال الكفيل وأموال اليتامى بنسبة متساوية في المأكل لأنّ الصغير يقارب الكبير في الأكل، بينما في الملبس يأخذ الصغير بحسب حاجته فقط، ويجب التدقيق في ذلك فإنّ اللّه سبحانه يعلم من هو المفسد المتجاوز للحد ومن هو المصلِح المدقِّق في الصرف، وجواز المخالطة بهذه الكيفية من باب التيسير على المكلّفين، وإلاّ فإنّ اللّه ﷻ قادر أن يوقعهم في العنت والعسر بفرض ميزان حاد في الصرف من أموال اليتامى، فإنّه سبحانه غالب على كل أحد وحكيم في أحكامه وتشريعاته.

أحكام للحياة الزوجية

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾.

لا يجوز الزواج من المشركة الوثنية وليس الكتابية، فالزواج من الثانية جوّزته الآية الخامسة من سورة المائدة ولا نسخ في المقام، فلا يجوز الزواج من الوثنية إلاّ إذا آمنت، وأمةٌ مؤمنة خير وأفضل عند اللَّه سبحانه وبحسب الواقع من الوثنية ولو كان في الوثنية صفات مثيرة للإعجاب، والحكم نفسه يسري على الرجل الوثني لو أراد أن يتزوّج من مؤمنة. وأحد وجوه الحكمة في ذلك أنّ الوثني بسبب المنظومة الفكرية والعقدية التي ينتمي إليها بشكلٍ تلقائي يدعو إلى النار، بينما اللَّه سبحانه ومن خلال جميع تشريعاته يدعو إلى الجنّة وإلى الصفح عن الأخطاء الماضية، لأنّ دخول الجنّة يتوقف على الصفح عن الأخطاء التي بطبيعتها تحول بين الإنسان وبين دخوله الجنّة، ولا يتحقق ذلك إلاّ بإذن اللَّه تعالى، أي بتوفيق وتسبيب منه، وإنّما يبيّن اللَّه سبحانه هذه الأحكام كي يتذكرها جميع المكلّفين لأنّها مغروسة في فطرتهم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾.

الظاهر من سياق الآية أنّ السؤال لم يكن حول خصوصيات الحيض في نفسه وإنّما اقتراب الزوج جنسيًا من الزوجة في فترة الحيض، فجاء الجواب بأنّ الحيض أذىً وقد يتسبّب الجماع أثناءه في حصول مضار لكلا الزوجين، ولذلك وجب اعتزال الزوجة وعدم مقاربتها إلى أن تطهر وتنقى من الحيض، فإذا تطهّرت واغتسلت جاز مقاربتها وهو مفاد الأمر بعد الحظر، والمقاربة تكون في القُبل الذي أحلّه اللّه تعالى للزوجين بأمره. ثم ضربت الآية قاعدة عامة تنطبق على هذا المورد وعلى غيره، وهي أنّ اللّه سبحانه يحب التوّابين الذين يرجعون إليه بعد الذنب كما لو أذنبوا بإتيان الزوجة الحائض، ويحب الذين يتطهّرون من كل ما يوجب الطهارة كالتطهّر من الحيض.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾.

الزوجة هي الموضع الذي يُحرَث فيه للولد، ولهذا يجوز إتيانها ومقاربتها في موضع الحراثة وهو القُبُل في أيّ زمان. وقدمّوا لأنفسكم ما ينفعكم دنيًا وآخرةً من الطاعات، ولازموا التقوى أثناء العمل فإنّكم ستقفون بين يدي اللّه سبحانه يومًا ويسألكم، وآنئذٍ فليبشر المؤمن بعطاء اللّه سبحانه. ولعل العلاقة بين صدر الآية وذيلها تتمثل في لزوم قيام العلاقة بين الزوجين على أساس الطاعة للّه ﷻ وملازمة التقوى.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾.

لا تجعلوا اللَّه سبحانه معرضًا للقَسَم في كل حالة، ومنها أن تجعلوا القَسَم والحلف باللَّه تعالى مانعًا من البر كالإحسان للأبوين وصلة الأرحام، ومن التقوى كالعبادات وسائر وجوه الخير، والإصلاح كإصلاح ذات البين أو إصلاح شؤون الناس، وذلك بأن يحلف الإنسان يمينًا أن لا يبر أو لا يعمل التقوى أو لا يصلح بين الناس، فإنّ الحلف في مثل هذه الموارد في الوقت الذي هو منعٌ لوجوه الخير وتفويتٌ للمصالح الدنيوية والأخروية فإنّه أيضًا تعريضٌ باللَّه سبحانه وهتكٌ لعلوّ شأنه، ولهذا لا يجوز التعريض باللَّه ﷻ بالحلف به سبحانه في كل حالة وفي كل شيء، فإنّه تعالى يسمع ويعلم بكل ما يقوم به عباده وإن كان صغيرًا، وذلك تعبير عن المؤاخذة من قِبَل اللَّه سبحانه لعباده.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

ومع أنّ التعريض باللَّه سبحانه بالحلف به في كل حين موجبٌ للمؤاخذة، فإنّه سبحانه لا يؤاخذ عباده على الأَيْمَان التي يتلفّظون بها لَغْوًا، أي الحلف الذي يصدر من الإنسان اعتيادًا وبلا التفات ومن دون قصد اليمين، كالمتداول عند كثير من الناس، فإنّ مثل هذه الأَيْمان لا إثم فيها ولا كفّارة، وإنّما يؤاخذ عباده إمّا بإيجاب الإثم أو الكفّارة على ما قصدوه بقلوبهم من الأَيمان، وبالرغم من ذلك فإنّ اللَّه ﷻ يغفر ذنوب عباده ويعاملهم بالحلم في الحالين.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

الذي يُقْسِم أن لا يقارب زوجته أبدًا أو أكثر من أربعة أشهر بقصد الإضرار بالزوجة -وهو معنى الإيلاء-، فلا حق له في الامتناع أكثر من أربعة أشهر، فإن رجع قبل تجاوز الأشهر الأربعة فلا شيء عليه إلاّ الكفّارة، وإن أبى إلى أن تجاوز الأشهر الأربعة، فإن صبرت الزوجة فبها، وإن رفعت أمرها إلى الحاكم أجبره على الرجوع أو الطلاق، فإن رجع كفّر، وإن طلّق فلا شيء عليه، وإن أبى وامتنع عن الاثنين طلّقها الحاكم الشرعي.

وقد جعلت الآية الأولى حق الرجوع في ظل الأشهر الأربعة موضوعًا للمغفرة والرحمة، فاللّه سبحانه في هذه الحالة يصفح عن الخطأ السابق وينعم على الزوجين من فيض رحمته، كما جعلت العزم على الطلاق موضوعًا لسميع وعليم، وفي ذلك إشعار بالرقابة الإلهية على البشر كيلا يتعمدوا تجاوز الحد.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾.

المطلّقة المدخول بها لا يحل لها التزوّج من شخص آخر إلاّ بعد

انقضاء العدّة، فيجب عليها أن تنتظر انقضاء ثلاثة قروء وهي الأطهار، فإذا طُلِّقَتْ في طهر تنتظر إلى أن ينقضي الطهر الثالث ببدء الحيضة الثالثة، فإذا بدأت الحيضة الثالثة جاز لها الزواج.

ولو تبيّن أنّها حامل في فترة العدّة فلا يجوز لها أن تكتم حملها لتسرِّع عدّتها، بل يجب الإخبار بالحمل وتكون عدتها إلى حين ولادتها، وإنّما يصدق في ذلك من يراقب حدود اللّه سبحانه بسبب إيمانه باللّه عزّ وجل واعتقاده بأنّه سيقف بين يديه ويُسأَل يوم القيامة.

وفي أثناء العدة يجوز للزوج إرجاع زوجته، ولهذا فهو أحق بها إن كان عازمًا على إصلاح حياته الزوجية.

ثم ضربت الآية المباركة قاعدة عامة لتنظيم الحياة الزوجية، فالحقوق متكافئة، وقد أكّدت الآية على أنّ حقوق الزوجة أسبق من الزوج، ولهذا ذكرت الآية الذي لها من الحقوق ثم الذي عليها. وهذه الحقوق تكون بحسب المتعارف، وهذا ما يعني مدخلية الزمان والمكان في تحديد طبيعة ومستوى الحقوق. ثم إنّ قوله تعالى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ هل هو متعلق فقط بهذا المورد من الطلاق، فيكون المراد منه تساوي الحقوق بين الزوجين في فترة العدة، والدرجة التي يتفاضل بها الرجل إنّما هي كون صلاحية الرجوع بيده فقط، أو أنّه قاعدة عامة وهذا المورد من الطلاق مصداق من مصاديقها، فيكون المراد تساوي الحقوق بين الزوجين بشكلٍ مطلق، والدرجة للزوج كونه مسؤولاً عن النفقة والإدارة، وهذا بالطبع لا يمنع من كون الزوجة مديرة في الحياة الأسرية أيضًا.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾.

الطلاق الرجعي الذي يجوز للزوجين الرجوع فيه لبعضهما سواءً قبل نهاية العدة أو بعدها إنّما هو الطلاق الأول والثاني، فقبل نهاية العدة لا حاجة لعقد جديد وبعدها لا بد من عقد جديد، وبعد الطلاق الأول أو الثاني أمام الزوج خيارات: فإمّا أن يمسك الزوجة ويعيدها ويعاملها بالمعروف بأن يعطيها حقوقها المتعارفة عند عامة الناس، أو أن يسرّحها ويطلّقها ويحسن إليها فلا يؤذيها بتعليقها ولا يفرض عليها أمورًا قاسية، كما لا يحل للزوج أن يأخذ شيئًا من المهر الذي أعطاه الزوجة ما دام قد دخل بها، لكن لو خاف الزوجان من عدم القدرة على الالتزام بأحكام الحياة الزوجية لو بقيا زوجين، فبإمكان الزوجة أن تفتدي نفسها من قيد الزوجية بأن تدفع المهر أو أكثر للزوج مقابل الانفصال، فلا إشكال أن تدفع هي ولا إشكال ولا حرمة أن يأخذ الزوج في هذه الحالة.

وقد وُجِّهَ الخطاب أيضًا إلى القائمين على الفصل في الخصومة بين الزوجين كالقاضي أو الأقارب، أن لا حرمة على الزوجين في إعطاء وأخذ عِوَض الانفصال، وكل ذلك كي لا يشعر أحدٌ بالحرج من ذلك. هذه حدود

اللّه ﷻ ولا يجوز التصرّف فيها والتلاعب بها أو تجاوزها إمّا بالإعراض عنها أو الأخذ بغيرها، ومن يفعل عامدًا ويتعدّى على الحدود والأحكام الإلهية فإنّه ظالمٌ لنفسه لما يرتكبه من إثم وللمجتمع لما يسبّب ذلك من إفساد.

وفي الطلاق الأول والثاني يجوز للزوج الرجوع لزوجته حتى بعد انتهاء العدة من دون أن يكون هناك حاجة لتزوجها من شخص آخر، وأمّا لو طلّقها للمرة الثالثة فلا يجوز له الرجوع إليها ولا تحل له إلاّ بعد أن يتزوّجها رجلٌ آخر، فإذا تزوّج بها ذلك الرجل وطلّقها جاز لزوجها الأول الرجوع إليها بعقدٍ جديد بعد انقضاء عدّتها، وإنّما يصبح الرجوع في هذه الحالة مستساغًا إذا كان عند الزوجين عزمٌ يقيني على الالتزام بأحكام وحدود العلاقة الزوجية، وهي الحدود التي بيّنها الباري جلّ وعلا بشكلٍ واضح وجلي للعلماء، وفي ذلك دعوة لسائر المكلّفين للرجوع إلى العلماء في شؤون هذه الأحكام، وعدم الاكتفاء بالأذواق الشخصية أو الرجوع لغير أهل العلم.

ويُلاحَظ أنّ الآية (٢٢٨) جعلت مجرّد إرادة الإصلاح والرغبة في العودة سببًا كافيًا للرجوع حيث قالت الآية ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾، فبعد الطلاق الأول والثاني مجرد الرغبة في التئام الحياة الزوجية من جديد سببٌ مسوِّغ للرجوع، مع أنّ الرجوع جائز على كل حال، بينما الآية (٢٣٠) لم تكتفِ بمجرد الإرادة والرغبة وإنّما جعلت العزم اليقيني على الالتزام بأحكام وحقوق الحياة الزوجية هو السبب المسوِّغ للرجوع، بالرغم من أنّ الرجوع جائز على كل حال، حيث قال تعالى ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، والظن هنا بمعنى اليقين لأنّه من الألفاظ المتضادة من حيث المعنى فهو يعني اليقين ويعني الشك في اللغة العربية، ويمكن تمييز أحدهما بحسب مورد الاستعمال.

والفارق بحسب الظاهر أنّ الدين وحفاظًا على التئام الحياة الزوجية واستقرار الأسرة يشجّع على الرجوع مع أبسط سبب ومسوّغ، خصوصًا إذا لم تكن هناك عوائق كما في الطلاق الأول والثاني، ولذلك فإنّ مجرد الإرادة كافية في المقام، بينما في حالة الطلاق الثالث ينبغي اليقين الصادق بالعزم على رعاية الحقوق والأحكام الزوجية لا مجرد الإرادة، لأنّ الزوجة انتقلت في الحقيقة إلى زوج آخر وحياة أسرية أخرى، وتلك الحياة الأخرى لها أيضًا احترامها في نظر الدين، ولذلك لا ينبغي تهديمها إلاّ إذا كان هناك يقين بوجود عزم على استرجاع الحياة الزوجية الأولى بالوجه الصحيح، فإذا لم يكن هناك عزمٌ يقيني فالإبقاء على الحياة الأولى أولى.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾.

إذا طلّق الرجل زوجته وقاربت الانتهاء من العدّة فللزوج الحق في مراجعتها قبل انتهاء العدة، وبإمكانه تركها لتنهي عدّتها وتخرج من حبالته، ولكن لو فضّل مراجعتها فلْيراجِعْها بالمعروف عند الشرع وعند العقلاء مما أمضاه وأقرّه الشرع، وكذلك الأمر لو فضّل تسريحها وطلاقها. ولا يجوز أن يراجعها الزوج قبل انتهاء العدة بهدف إيذائها والإضرار بها، فإنّ من يفعل ذلك ظالمٌ لنفسه لأنّ الضرر سيعود عليه، ومن يخالف هذا الأمر فإنّه يتخذ آيات اللّه تعالى وأحكامه هُزوًا ويتعامل معها باستهتار، والحال

أنّ اللَّه سبحانه أنعم علينا بنعمه العظيمة، فعدم تسمية النعم بخصوصها دليل على كثرتها، وذكرها بصيغة المفرد دليل على ترابطها وتداخلها وتأثير بعضها في البعض الآخر وكأنّها نعمةٌ واحدة، ومن أبرز هذه النعم الكتاب المحتوي على التعاليم والحكمة وهي القيم الخاصة بإدارة الحياة الفردية والاجتماعية، ومن يتّعظ باستذكار هذه النعم يُحسِن التعامل مع آيات اللَّه سبحانه، وكل ذلك مدعاةٌ ليتقي الإنسان ربّه فإنّه سبحانه يعلم بحقيقة كل ما يصدر من الإنسان من مواقف.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

إذا أكلمت المرأة المطلّقة عدتها فلا يجوز لزوجها الأول ولا لأحدٍ من أقاربها أن يمنعها بشدة وتضييق من أن تتزوج من زوجٍ آخر، أو تتزوج من زوجها الأول، إذا حصل التراضي القائم على المعروف عند الشرع والعقلاء بينها وبين أيٍّ من الزوجين، وهذا الحكم ترسمه الآية المباركة على أنّه موعظةٌ موجَّهة لمن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر، مع أنّه في الحقيقة حكمٌ عام، والسبب في هذا التخصيص أنّ الذي يمكن أن يستفيد من هذا الحكم ويلتزم به إنّما هو المؤمن وأمّا غيره فيكابر غالبًا، كما أنّ التزام المؤمنين بهذا الحكم أزكى لهم لأنّه سبب لنموهم وتكاملهم، وأطهر لحياتهم لأنّه يجعلها نقيّة خالية من الظلم والاعتداء وشبههما، واللَّه سبحانه هو العالم بحقائق مثل هذا الحكم وما يترتب عليه من مصالح، بينما البشر لا يعلمون أيًّا من ذلك

ولذلك يحتاجون إلى تعليم من اللَّه سبحانه.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾

لأنّ ﴿يُرْضِعْنَ﴾ جملة فعلية في سياق الإنشاء فهي تفيد الوجوب، ومؤدّاه هنا أنّ الوالد إذا أراد إكمال سنتين في شأن إرضاع ابنه فالأم أولى من أيّ مرضعةٍ أخرى، فهذا هو مفاد الوجوب هنا، ويجب على الوالد الانفاق على الأم المرضعة طوال مدة الرضاعة سواءً كانت لا تزال زوجة، أو كانت مطلَّقةً، والنفقة تكون بحسب المتعارف من حيث المال والطعام واللباس وشبه ذلك، بحيث لا تكلَّف الأم فوق طاقتها في الرضاعة ولا يكلَّف الوالد فوق طاقته في الإنفاق، فلا تُستغَل شفقة الأم على الولد للإضرار بها بأي نحو سواء في النفقة أو الرضاع أو غير ذلك، ولا تُستغَل شفقة الأب للإضرار به بأيّ نحو. ولو مات الوالد فعلى الوارث أن ينفق على الأم طوال مدة الرضاعة بالمستوى نفسه الواجب على الوالد. ويحقّ للوالدين بعد التشاور والتراضي والفصال وهو إيقاف الرضاعة قبل تمام السنتين، كما أن الوالد يحق له أن يطلب مرضعة أخرى غير الأم ويعطيها أجرها بحسب المتعارف، ولو رضيت الأم بالأجر نفسه فهي أولى. ويجب على الوالدين الحذر في مراعاة هذه

الأحكام وإدراك أنّ اللّه سبحانه بصير ويرى ما يفعل العباد.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾.

المرأة التي يموت زوجها يجب عليها أن تعتد بالانتظار أربعة أشهر وعشرة أيّام، فإذا أكملت العدّة صار قرارها بيدها في الزواج من آخر، وليس لأحدٍ من أهلها أن يمنعها بداعي الخجل أو الإحراج سواءً من عائلة الزوج المتوفّى أو من المجتمع، خصوصًا إذا كان زواجها بحسب المتعارف الشرعي والعقلائي، ويجب على الجميع إعطاء الزوجة هذا الحق وعدم مجافاتها فإنّ اللّه سبحانه عالمٌ يخبر حقيقة أي تصرّف يصدر من عباده. ومورد ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أنّ المرأة إلى ما قبل نزول الآية كانت تنتظر فترة أطول فخفّف اللّه تعالى عليها وجعل الفترة أقل، لأنّ المرأة لا تستطيع الانتظار أكثر من ذلك، وهذا المورد لا يخصّص الآية، لهذا يصح الاستدلال بها في جميع موارد الخجل والإحراج وشبههما.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾.

لا إثم على الرجل أن يبدي رغبته تلميحًا في خطبة امرأة متوفّى عنها

زوجها أثناء عدّتها، كأن يقول لها مباشرةً أنا راغبٌ فيكِ فضعيني في اعتبارك بعد نهاية العدّة، أو يبدي ذلك إليها عبر إحدى قريباته مثلاً، كما لا إثم عليه لو أنّه أضمر ذلك في نفسه، لأنّ هذا من الرغبة الحسنة في حال كونه صادقًا، وقد علم اللَّه ﷻ فعلاً أنّه صادق وسيذكرها ويخطبها بعد نهاية العدّة، ولكن لا يجوز أن يواعدها سرًّا في مكانٍ ما ليقول لها ذلك، إلاّ أن يلمّح لها فقط، وهو توكيد لما مضى بيانه الآية، ولا يجوز التصريح بالخطبة والإقدام عليها إلاّ بعد انتهاء العدّة، هذا هو حكم اللَّه سبحانه فيجب الالتزام والحذر من التلاعب والعبث به فإنّ ذلك يعلمه اللَّه سبحانه ويعلم نوايا الإنسان الحقيقية، ومع ذلك فلو أخطأ الإنسان وعاد إلى اللَّه سبحانه مستغفرًا فإنّ اللَّه ﷻ يصفح عنه ويعامله بحلمه.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾.

من يطلّق زوجته قبل الدخول بها، فتارةً لم يعيّن لها مهرًا أثناء العقد، وفي هذه الحالة يجب عليه أن يدفع لها بما يتناسب مع مستواه المعيشي فالغني بحسب مستواه والفقير بحسب مستواه، وبما يتناسب مع المتعارف الشرعي والعقلائي، وهو حقٌ للزوجة وواجب على الزوج، إذ يجب أن يكون محسنًا لزوجته وإن طلّقها. وتارةً يعيّن مهرًا فلها نصفه، إلاّ أن تعفو وتتنازل،

أو يعفو الزوج ويتنازل فيعطيها المهر كاملاً، والعفو من كلٍّ منهما يقوّي العزيمة الإيمانية ويقرّب الإنسان للتقوى، ولذلك ينبغي لكلٍ من الزوجين أن لا ينسى فضل الإحسان ومحاسنه عندما كانا زوجين. ومما يشجّع على الإحسان والعفو أنّ كل ذلك تحت العناية الإلهية وهو بصير يخبر دقائق الأمور الصادرة من العباد.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾.

حافظوا على جميع الصلوات اليومية من حيث الوقت والكيفية خصوصًا صلاة الظهر، ولعلّ التوكيد على صلاة الظهر راجعٌ إلى أنّ الناس عادةً في مثل هذا الوقت يكونون مشغولين بالسعي في قضاء حوائجهم فربما تهاونوا بها.

ثم أُمِرُوا بالقيام للّه قانتين، والقيام يعني الإتيان بالشيء على تمام وجهه، كما يعني أيضًا الوقوف على الأقدام، وذلك يفيد بأنّ الوقوف في بعض الحالات على الأقدام بين يدي اللّه تعالى من أسمى صور العبادة، والقنوت يعني الطاعة مع الخضوع، وفي الروايات عن الباقر والصادق عليهما السلام أنّه الدعاء في الصلاة أثناء القيام.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)﴾.

لو صادف الإنسانَ شيءٌ يخيفه كسبع أو عدو وخاف فوات الوقت

فبإمكانه أن يصلّي راجلاً أي أثناء المشي إذا استطاع أو راكبًا، فإذا تبدّد الخوف فعليه أن يصلّي بالطريقة التي فرضها اللّه سبحانه وعلّمنا إيّاها بعد أن كنّا جاهلين بكيفيتها وعظمتها.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾.

هذه الآية منسوخة كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام بالآية المتعلقة بحق الإرث للزوجة وبعد الوفاة أربعة أشهر وعشر، لأنّ هذه الآية تنصّ على أنّ الزوج قبل وفاته يجب عليه أن يوصي بالنفقة على زوجته لمدة سنة، وأن لا تخرج من بيت الزوجية طوال هذه المدة إلاّ إذا هي اختارت الخروج والزواج من شخصٍ آخر طبقًا للمتعارف الشرعي والعقلي، ولا إثم على الورثة لو اختارت الزوجة الخروج والزواج. وأحد وجوه النسخ في هذه الآية عدم حق لها في الإرث. واللّه سبحانه غالبٌ على كل شيء وحكيم في تشريعاته.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾.

من يطلّق زوجته ينبغي له أن يحسن لها بتمتيعها بحسب ما هو متعارف، بأن يهبها أموالاً وشبهها ويتنازل لها عن بعض حقوقه ليحافظ على مشاعرها ويخفّف من حدة التوتر، فإنّ هذا التعليم حقٌ على كل من يريد أن يتقي اللّه سبحانه، فالتقوى إنّما تتجلّى في مثل هذه الحالات.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾.

وكل هذه الأحكام هي آيات وتعاليم إلهية يبيّنها اللَّه ﷻ واضحة جليّة لعباده، رجاء أن تكون سببًا لإثارة عقولهم للبحث في دلائلها وآثارها.

قائد شجاع لإدارة التحولات

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾.

عمَّ الطاعون قريةً من قرى بني إسرائيل فخرج منهم ثلاثون ألفًا هربًا من المرض، وقيل خرجوا بأجمعهم وكانوا ثلاثين ألفًا، فأماتهم بأجمعهم في الطريق، ولعلّ الحكمة في ذلك أنّ الهرب من الموت لا ينجي من الموت، ثمّ مرّ عليهم النبي حزقيل عليه السلام ورآهم مجرد عظام متناثرة فتمنّى على اللَّه سبحانه أن يعيدهم للحياة ليعبدوه وليعمّروا الحياة، فاستجاب اللَّه تعالى له في الحال وإذا بالعظام تتطاير وتلتئم أجسامًا كلٌّ ينفض التراب عن نفسه، وعاشوا إلى أن قضى كلٌّ منهم أجله، وذلك من فضل اللَّه ﷻ على الناس، سواءً الذين عادت لهم الحياة، والفضل في ذلك واضح، أو غيرهم لحصول كثير من ذلك في حياتهم لكنّهم لا يشعرون، ولذلك فإنّ الكثير من الناس يغفلون عن الشكر للَّه سبحانه أو يتعمّدون عدم الشكر عنادًا أو جهلاً.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾.

ولأنّ الحياة هبة من اللَّه سبحانه والموت بيده فإنّ التفاني في سبيل اللَّه سبحانه ودفع الظلم دفاعًا عن النفس والعرض هو الخيار الأصلح للإنسان، ولا ينبغي له التقصير في ذلك خوفًا من الموت، فإنّ اللَّه يسمع ويعلم بجميع نوايا عباده وما يضمرونه في أنفسهم حول هذا الأمر وغيره.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾

كدليل على الكرم الإلهي في العطاء قال سبحانه في عجز سورة النمل بنحوٍ مجمل ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [سورة النمل: ٨٩]، وكذلك في عجز سورة القصص ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [سورة القصص: ٨٤]، وفي سورة الأنعام ذكرت آية تفصيلاً لهذا الإجمال وهو قوله سبحانه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: ١٦٠]، ما يعني أنّ الخير في الآيتين هو عشر أمثال الحسنة، بينما في هذه الآية من سورة البقرة نصَّ على أنّ الجزاء أضعافٌ كثيرة، فما المراد من ذلك؟

في الرواية الصحيحة[١] عن الباقر عليه السلام أنّ ما جاء في الآيات الثلاث الأولى فضلٌ لكلِّ مسلم، بينما ما جاء في هذه الآية من سورة البقرة فضلٌ لخصوص المؤمنين، وهذا دليل على أنّ رتبة الإيمان أعلى من رتبة الإسلام،

(١) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ج١ ص٢٩٤، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

والأضعاف الكثيرة سبعون ضعفًا، بل في الرواية أنّ الإيمان كلّما كان أعمق كانت الزيادة أكبر.

واستعمال لفظ القرض في الآية إشعار من جهة بأنّ اللَّه سبحانه يرد على عباده عطاءهم ويكافئهم عليها، ومن جهة أخرى بأنّ المعطي على إيمان واعتقاد بأنّ اللَّه ﷻ سيثيبه عليها.

فالعطاء بيد اللَّه سبحانه، وهو يعطي على قدر الإيمان، فهو يقبض ويمنع عطاءه من يؤمِّل غيره، ويبسط ويوسِّع في العطاء على من يرجوه ويفعل الخيرات لوجهه تعالى، وستظهر حقيقة ذلك حين يرجع العباد إليه، فكلٌّ سيأخذ على قدر إيمانه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

كان بعض بني إسرائيل يقطنون أرضًا بين الأردن والشام فاحتلّ جالوت أرضهم وطردهم منها وسبى أبناءهم، فجاءوا إلى نبيّهم وهو اشموئيل عليه السلام ومعرّبها إسماعيل، وهو نبيٌّ جاء بعد النبي موسى عليه السلام وليس هو إسماعيل الذبيح عليه السلام، وطلبوا منه أن يرسل لهم قائدًا يكون رئيسًا لهم، وعبَّرت عنه الآية بالملك لأنّه المالك لقرارهم، وذلك ليقودهم في تحرير أرضهم واسترجاع حريتهم طبقًا للمنهج الإلهي، فأجابهم بما سيصدر منهم من موقفٍ

رافض قائلاً لعلّكم لن تقاتلوا إذا حانت ساعة المواجهة، واستعمال هل يفيد اطمئنانًا بأنّ هذا ما سيحصل أو تأكيدًا عليه كما في قوله سبحانه ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [سورة يونس: ٥٢]، وقوله ﷻ ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٧]، فقالوا: وأيّ شيءٍ لدينا يمنعنا عن القتال في سبيل تحرير أرضنا وأنبائنا مع أنّ جالوت أخرجنا من أرضنا وسبى أبناءنا. ثم حصل فعلاً ما ذكره اشموئيل، فبمجرد أن شرع قائدهم باتخاذ قرار المواجهة هربوا معرضين باستثناء قلّة منهم، واللَّه سبحانه يعلم بالظالمين منهم الذين هربوا بلا عذر.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾.

مع أنّ بني إسرائيل طلبوا من النبي إسماعيل أن يعيّن لهم قائدًا، إلاّ أنّه لم يقل لهم أنا عيّنت لكم وإنّما قال إنّ اللَّه ﷻ عيّن لكم طالوت قائدًا وأرسله لكم، فاعترضوا في البداية لسببين: الأول أنّ النبوّة في بني إسرائيل كانت في وُلْد لاوي بن النبي يعقوب عليه السلام، والملك في ولْد يوسف عليه السلام، وطالوت كان من ذرية بنيامين، لذلك كانوا يرون أنفسهم أحق بمنصب القيادة والملك منه، والثاني أنّ طالوت كان فقيرًا فعابوا عليه فقره، فهم لم ينظروا إلى كفاءته وإنّما نظروا إلى انتمائه العائلي ومستواه الاقتصادي وهي معايير خاطئة، لهذا صحّح لهم النبي ذلك وبيّن لهم بأنّ معاييرَ القيادةِ العلمُ والشجاعةُ لأنّ القرارات المصيرية تحتاج إلى علم وشجاعة، وهما صفتان تميّز بهما طالوت

على جميع بني إسرائيل، وهو عطاءٌ من اللَّه سبحانه له فهو المعطي لبعض عباده هذه الميزات وهو إذا أعطى أعطى بسعة بلا نقص وبعلم وحكمة فلا يعطي من لا يستحق.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾.

وأعطاهم النبي دليلاً على صدق وصحّة قيادة طالوت، وهو أن يعيد اللَّه سبحانه لهم التابوت، والظاهر أنّهم رضخوا لقوله مباشرةً لما للتابوت من مكانة عندهم، وهو الصندوق الخشبي الذي وضعت أمّ موسى ابنها موسى فيه عندما كان طفلاً وألقته في النهر، ولما التقط آل فرعون موسى من النهر أبقوا الصندوق في القصر واسترجعه موسى عليه السلام لمّا انتصر على فرعون، وقبيل موته وضع فيه الألواح التي كُتِبتْ فيها التوراة ومختصّات النبوّة وسلّمه إلى وصيه يوشع، وفتحه يوشع بعد موت موسى عليه السلام وصار بنو إسرائيل يعظّمونه ويتبرّكون به، ويأخذونه معهم في الحروب فيشحنهم بالطاقة الروحية وهي السكينة، والبقية هي مختصّات النبوّة، لكنّهم استهانوا به بعد ذلك حتى أصبح لعبةً بيد الصبيان فرفعه اللَّه سبحانه من بينهم، وكما أخبرهم إسماعيل عليه السلام فقد أعاده اللَّه إليهم محمولاً من قبل الملائكة تكريمًا له، وهو آية من اللَّه سبحانه يستفيد منه المؤمنون الصادقون وأهل اليقين، وأمّا الشكّاك فلا ينتفعون به.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

لمّا فصل طالوت نفسه عن المدينة وانفصل عنها وبصحبته جنوده، قال إنّ اللَّه ﷻ سيختبر صدقكم بنهرٍ في الصحراء نمر عليه، فمن شرب منه فليس من أتباعي، وأمّا من لم يشرب منه بالرغم من العطش أو اغترف بيده كفًّا واحدة فهو من الصادقين معي، وذلك أنّ من لم يستطع الصبر على العطش ليس مؤهّلاً لخوض التحديات، فشرب منه الأكثر وهم ستمائة ألف، وأطاع بعدم الشرب مطلقًا أو باغتراف كفٍّ ثلاثمائة وثلاثة عشر، ولمّا تجاوز طالوت مع المؤمنين المطيعين النهر وقابلوا جيش جالوت وجهًا لوجه، قال الذين شربوا من النهر ليس لدينا قدرة على مواجهة جيش جالوت، لكن الذين لم يشربوا وهم المتيقنون بأنّهم سيقفون بين يدي اللَّه ﷻ يومًا وأنّه سبحانه معهم خطوةً بخطوة، قالوا ما أكثر الحالات التي تغلّبت فيها جماعة قليلة متعاضدة على جماعة كثيرة متعاضدة أيضًا بإذنٍ وإرادةٍ من اللَّه سبحانه، فإنّه سبحانه يجعل إرادته مع الذين يصبرون ويتحمّلون كامل مسؤولياتهم لتحقيق أهدافهم.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾.

ولذلك لما بروزا للمواجهة تضرّعوا إلى اللَّه سبحانه كي يمنحهم

الصبر ويعطيهم القوّة ليَثبُتوا وتترسّخ عزيمتهم على تحقيق أهدافهم، ثم يوفقهم ويكتب لهم النصر والغلبة على الجماعات الكافرة العازمة بإصرار والمتترّسة بكل قواها للقضاء على الالتزام الديني.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾.

ولأنّهم برزوا بهذه الروح أعانهم اللَّه سبحانه فهزموا جيش جالوت، وكان لِمَا قام به نبي اللَّه داود من قتله لجالوت الدور المادي الأساس في هذه الهزيمة بعد الدعم الإلهي، وقد قتله بحجر من الفيروزج رماه بها بواسطة مقلاع فأصابه في جبهته فقتله ووقع من على ظهر الفيل فتفارر الجيش.

وقد مَنَّ اللَّه سبحانه وتعالى على داود بأمورٍ ثلاثة، أولها جعله ملكًا ورئيسًا على قومه، وثانيها جعل منه نبيًّا ينطق بالحكمة، وثالثها فتح له أبواب العلوم، وهذا يعني أنّه هذه الأمور إنّما هي عطاءٌ إلهي وتوفيق من اللَّه ﷻ.

ثم إنّ الدعم الإلهي للصالحين من عباده كما في مثل هذا المورد إنّما هو لإزالة الفساد والمحافظة على الصلاح في الأرض، ولولا أنّ اللَّه ﷻ يحثُّ بعض عباده الصالحين ويدعوهم من خلال أوامره لمواجهة صانعي الفساد لشاع الفساد في الأرض واضمحلّت عناصر الصلاح، وهو فضلٌ ومِنّةٌ من اللَّه ﷻ على عباده. وكل ذلك يبيّن أهمية دور المصلحين في الأرض.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾

إنّ هذه الحادثة المفصَّلة آية من اللَّه ﷻ وعلامة تهدي إلى الفضيلة وترشد إلى طبيعة السنن الإلهية، واللَّه سبحانه يأتي بها واحدةً تلو الأخرى إلى نبيّه ومن خلاله إلى أمّته، وهي آياتٌ يقينية وحقيقة صادقة، وتلاوتها على النبي دليلٌ على أنّه نبيٌ ومرسَل، وإشارة إلى ضرورة الصدح بها أمام الملأ.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل، ولم تستعمل الآية هنا (أولئك) لأنّها تحتمل الإشارة إلى الأنبياء على أنّهم أفرادٌ متفرقون، بينما ﴿تِلْكَ﴾ تشير إليهم على أنّهم جماعةٌ واحدة مترابطة تحمل هدفًا واحدًا ومنهجًا واحدًا، وهذا لا يمنع أن يكون بعضهم أفضل من البعض الآخر، ولذلك فإنّ اللَّه ﷻ كلّم موسى عليه السلام تكليمًا وهو يشير إلى أحد وجوه الأفضلية، كما أنّه سبحانه رفع بعضهم درجات كثيرة في الدنيا والآخرة، بينما رفع البعض الآخر درجات أقل أو درجة واحدة فقط، واختصّ عيسى عليه السلام بالأدلة الواضحة كإبراء الأكمه، ودعمه وقوّاه بقوةٍ روحية وإيمانية تزوّده بالطاقة اللازمة للنبوّة والرسالة وتفتح له أبواب العلم وتكشف له الحقائق وهي الظاهر من روح القدس في الآية.

وكل نبي عامل استقرار وتماسك لأتباعه، ولكن مع ذلك دبَّ الاختلاف بينهم بعد موته إلى حد الاقتتال بالرغم من وجود الأحكام والتشريعات الواضحة التي جاءهم بها الأنبياء عليهم السلام، ولو أراد اللَّه سبحانه لألجأهم قسرًا لعدم الاختلاف الفكري وعدم الاقتتال، لكنّه سبحانه فعل ما يريد بأن ترك لهم الاختيار، ولذلك منهم من اختار الإيمان ومنهم من اختار الكفر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾.

خطاب للمؤمنين بأن يبادروا ويسارعوا بالإنفاق مما عندهم من مال أو وقت أو جاه وما أشبه ذلك قبل أن يفاجئهم يوم القيامة، فإنّه يومٌ ليس موضعًا للتجارة والبيع كي يمكن أن يؤخّر الإنسان عطاءه وإنفاقه إلى ذلك اليوم، بل هو يوم لجني أرباح التجارة في الدنيا التي هي دار العمل فقط، كما أنّه ليس مكانًا للاحتماء بالأصدقاء وطلب الوساطة من الآخرين، فإنّ كل إنسان في ذلك اليوم مرهونٌ بعمله، والشفاعة إنّما تكون بإذن اللَّه تعالى، وآنئذٍ فالكافرون هم الظالمون لأنّهم ظلموا أنفسهم وأصبحوا هم الخاسرين لخلوّ صحفهم من الأعمال الحسنة.

آية الكرسي

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾.

هذا هو مفهوم التوحيد ويجب الإقرار به نظريًا وتطبيقه عمليًا، فلا إله موجود إلاّ اللّه سبحانه، وقد وصفته الآية بالحي وهي صفة مشبَّهة تعني الموجود الدائم الأزلي السرمدي، والقيّوم وهي صيغة مبالغة تعني القائم على مخلوقاته يرعى ويدير أمورهم، بحيث لا يغشاه نعاس ولا يهيمن عليه نوم، وجميع ما في السماوات وما في الأرض من أمور مادية ومعنوية ملكٌ له.

هكذا وصفت الآيةُ الباري جلت قدرته قبل أن تبيّن أثر هذا الوصف، فهو واحدٌ أحد، دائم الحياة، قائمٌ على شؤون عباده بلا انقطاع ولا حتى بلحظة نعاس، ومالكٌ لجميع الأمور، لذلك فلا يمكن لأحدٍ أو يشفع لأحد في قضاء حاجة أو غفران ذنب وشبه ذلك إلاّ أن يأذن اللّه سبحانه لأنّه المالك لهذا الأمر. وكأنّ الخطاب في الآية في سياق التحدي لأنّها تتساءل من هو هذا الذي يستطيع

أن يشفع لأحدٍ بدون إذن من اللَّه سبحانه، ومعنى ذلك لا أحد يقوى على ذلك.

ثم أكملت الآية صفات اللَّه ﷻ، فهو يعلم حاضر كل أحدٍ وماضيه، فما بين أيديهم هو الحاضر، وما خلفهم أي ما تركوه خلفهم هو الماضي، وقد يُراد بما بين أيديهم الحاضر والماضي في آن لحصوله الفعلي وحضوره الواقعي نظرًا لأنّ الماضي حاضرٌ في الذاكرة أيضًا بالإضافة للوجود الفعلي للحاضر، وأمّا الذي خلفهم فهو المستقبل الذي سيأتي من خلف حاضرهم ومن بعده، لأنّ المستقبل يأتي بعد وخلف الحاضر.

وفي الوقت نفسه لا يستطيع أحدٌ أن يطّلع بشكلٍ صحيح على شيء ولو كان بسيطًا جدًا من علم اللَّه ﷻ إلاّ أن يشاء سبحانه ذلك، وقد وَسِعَ علمُ اللَّه ﷻ الكونَ بأجمعه. ولعل التعبير عن العلم بالكرسي فيه إشارة إلى الهيمنة العلمية، أشبه بالجالس على الشيء، أي عالم بكل ما في الكون وكأنّه بين يديه وبلا أن يكون في حاجةٍ لأيّ جهدٍ أو حركة. وعلمه هذا ملازم لهيمنته وتسلّطه على الكون ولهذا لا يصعب ولا يثقل عليه حفظ الكون بأجمعه.

ثم إنّ هيمنة اللَّه سبحانه على الكون وعلمه بجميع ما فيه لا تعني أنّه سبحانه جزءٌ منه أو داخلٌ فيه، بل هو العلي والمتعالي على كل مخلوقاته ولا يُقاس بهم، وهو عظيم وأعظم من كل شيء.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾.

لا يوجد إكراهٌ وفرضٌ بأساليب قسرية للعقائد في الدين الإسلامي،

والإكراهُ فرضُ الشيء على الآخرين من غير أن يكون لديهم حب ورضا بذلك الشيء، بالتالي فلا الدين الإسلامي يُفْرَض على أحدٍ بالقسر، ولا يُكْرَه أحدٌ على ترك دينه، فالدين الإسلامي واضحٌ بيّنٌ وعلى الإنسان أن يختار، فمن خلال الوحي المنزَل وسيرة النبي المرسَل ﷺ تبيّن بوضوح الطريق المستقيم المؤدي للصلاح وهو المراد بالرشد، وتميّزه عن الغي وهو الطريق المنحرف المؤدي للفساد، وبناءً عليه فأيّ إنسان يكفر ويتبرّأ من الطاغوت وهو كل من يتجاوز الحد في العصيان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يؤمن باللَّه سبحانه نظريًا وعمليًا، فقد قبض بشدّة على العروة الوثقى وهي اليد التي يُمْسَك بها الإناء ويُحْمَل، والوثقى بمعنى الأكثر ثباتًا والأوثق في الحمل، أي كي يكون الحمل موثوقًا غير معرَّض للسقوط، ولذلك فهذه العروة لشدّة وثاقتها وثباتها تكون قوية غير قابلة للانفصام والانقطاع، وهذا ما يبيّن قوة الإيمان باللَّه سبحانه وأثره الإيجابي والتنموي على حياة الإنسان.

ولا يمكن التلاعب والتمويه في صدق هذا النوع من الانتماء لأنّ اللَّه سبحانه سميعٌ عليم بصيغة المبالغة، فهو سبحانه يسمع ويعلم بجميع ما يصدر من الإنسان وما تنطوي عليه نفسه.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾.

اللَّه سبحانه وتعالى ولي المؤمنين أي قريبٌ منهم يلي أمورهم، فهو سبحانه لا يسوسهم ويلي أمورهم عن بعد، ومن آثار هذه الولاية الهداية لأنّه سبحانه يخرجهم على الدوام من ظلمات الجهل والضياع إلى نور العلم

والهدى، وأمّا الذين كفروا فبسبب بعدهم عن اللَّه سبحانه يقترب منهم ويلي أمورهم الذين يتجاوزون الحدود في العصيان، فيخرجونهم من نور العلم والهدى إلى ظلمات الجهل والضياع، وهؤلاء العصاة هم أصحاب النار، والصحبة هنا كأنّها تشير إلى العلاقة الدائمة والملازمة للنار، ولذلك يكونون خالدين أبد الدهر فيها، والعياذ باللَّه، وبالتالي فإنّهم يأخذون أتباعهم إلى النار أيضًا، وقد استعلمت الآية صيغة الجمع ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ﴾ كتعبير عن كثرة السبل البعيدة عن اللَّه سبحانه.

الأنبياء والأدلة الواقعية

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾.

خطاب موجَّه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله ومنه إلى أمّته، وفيه نوع تعجّب من طغيان الإنسان إذا ساد الناس ونوع تحدٍ لما فيه من إبراز لعظمة اللّه وقدرته سبحانه وتعالى، فقوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في سياق هذا التعجّب والتحدي، فلما أُدخِل إبراهيم عليه السلام على نمرود وهو في عنفوان ملكه، ولعل المراد بقوله سبحانه ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أنّ إبراهيم عليه السلام أشعره بأنّ الملك الذي بيده إنّما هو من اللّه سبحانه وليس من عند نفسه ولهذا يجب عليه أن يقرّ بالعبودية للّه عزّ وجلّ، واستدلّ إبراهيم عليه السلام على ذلك بأنّ اللّه سبحانه هو الذي يعطي الحياة وهو الذي يأخذها، فأراد نمرود أن يحتجّ عليه في ذلك فقال أنا أيضًا أستطيع ذلك فأنا أستطيع أن آتي برجلين وجب عليهما القتل فأقتل أحدهما وأترك الآخر فأكون قد أمتُّ وأحييت، فقال له إبراهيم عليه السلام كما في الرواية عن الصادق عليه السلام: فأحيّي الذي قتلته، ثم قال له إنّ اللّه سبحانه يأتي

بالشمس من المشرق فأتِ بها أنت من جهة المغرب، فانقطعت حجة نمرود ولم يجد جوابًا. وهذا شأن الكافر باللَّه سبحانه فبكفره باللَّه فوّت على نفسه الهداية والرشد لأنّ الهداية إنّما هي من اللَّه ﷻ، ولهذا يكون الكافر ظالمًا لنفسه.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾.

وضرب اللَّه ﷻ لنبيّه مثالاً آخر في سياق التعجّب وإثبات القدرة الإلهية، أي ألم تر إلى نمرود، ومثل الذي مرّ على قريةٍ وهو عزير النبي عليه السلام كما في رواية، أو أرميا كما في أخرى، والظاهر أنّهما كانا متعاصرين في زمن بخت نصّر وكان لكلٍّ منهما موقف بسببه كما نصّتْ على ذلك رواية في تفسير علي بن إبراهيم القمّي[1]، ولعله لذلك اشتبه الأمر على الرواة.

فقد مرّ هذا النبي على قريةٍ لبني إسرائيل يظهر من الروايات أنّها بيت المقدس كانت مدمَّرة، إذ كانت جدرانها ساقطة على سقوفها وبقايا جثث أهلها من العظام متناثرة على الأرض لأنّ بخت نصّر أباد أهلها بأجمعهم، فتساءل كيف ومتى يمكن أن يعيد اللَّه سبحانه لأصحاب هذه العظام الحياة

(١) تفسير نور الثقلين، مصدر سابق، ج١ ص٣٢٩.

من جديد؟ فكشف له الباري قدرته فأماته مائة عام ثم أعاد له الحياة من جديد وسأله كم من الوقت قضيت؟ وكان يظن أنّه كان نائمًا، فقال إنّما هو يومٌ أو أقل، وإنّما قال أقل لأنّ اللّه ﷻ أماته صباحًا وبعثه قبل الغروب، فلمّا رأى الشمس بعد لم تغب قال أو بعض يوم، فخاطبه اللّه سبحانه بأنّه قد أماته منذ مائة سنة ولا زال ميّتًا طوال هذه المدة إلى أن بعثه هذه الساعة ليثبت له قدرته على إحياء الموتى، وليدلّل له أكثر أَمَرَه بالنظر إلى طعامه وكيف أنّه لم يتسنَّه أي لم تؤثّر فيه السنين فقد أعاده اللّه ﷻ طريًا، ثم أمره بالنظر إلى حماره كيف تلتئم عظامه ولحمه حتى اكتمل وعادت له الحياة، ثم أمره أن ينظر إلى نفسه، لأنّ اللّه ﷻ أعاد له العينين فقط وأراه كل ذلك، بعد ذلك أراه كيف يعيد الحياة للإنسان فأمره بالنظر إلى عظامه ولحمه المتناثر كيف يجتمع إلى أن استوى إنسانًا كاملاً، فاكتملت له بذلك عناصر اليقين، فقال علمتُ الآن يقينًا أنّ اللّه سبحانه قادرٌ على كل شيء، وكل ذلك ليجعله اللّه ﷻ آيةً وعلامة لجميع الناس كي يتعمّق عندهم اليقين بالقدرة الإلهية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

مرَّ ذات مرّةٍ نبي اللّه إبراهيم عليه السلام على ساحل بحر فرأى جيفة بعضها في الماء وبعضها في البر، تجيء سباع البحر فتأكل ما في الماء ثم ترجع فيشتمل بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضًا، وهكذا تفعل سباع البر، فتعجّب إبراهيم عليه السلام كما في الرواية وسأل ربّه أن يريه عيانًا كيف

يعيد الحياة إلى الموتى بعد أن تتفرّق أجزاؤهم؟ فسأله ربّه سؤال تقرير، وربما يكون سؤال استنكار لتعليم الغير، لأنّه سبحانه يعلم بإيمانه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن؟﴾، وفي هذا السؤال نفيٌ للشك عن إبراهيم عليه السلام ولهذا قال: نعم أنا مؤمن، وإنّما أردتُ زيادة اليقين، وقد عبّرت الآية عن ذلك باطمئنان القلب، وفي ذلك إشارة إلى أنّ القلب الشاك يكون غير مستقر وإنّما في اضطرابٍ دائم، فأمره اللَّه جلت قدرته أن يأخذ طاووسًا ونسرًا وديكًا وبطًّا ويضمّهم إليه وذلك زيادة في التعرّف عليهم، ثم يذبحهم، ففعل وعزل رؤوسهنّ ودقَّ اللحم والعظام والريش في الهاون إلى أن اختلط كل ذلك، ثم وزّعه على عشرة جبال ووضع أمامه حبًّا وماءً وجعل مناقير الطيور الأربعة بين أصابعه، وأمره اللَّه تعالى أن يدعوها إليه، فقال: آتين معي بإذن اللَّه، فجاءته مسرعةً حيث تطاير بعضها إلى بعض إلى أن استوت الأبدان كما كانت تمامًا، وجاء كل بدن والتزق برقبته التي فيها رأسه، فخلّى إبراهيم عليه السلام عنها فوقعت تشرب من الماء وتلتقط الحب.

وبعد إقامة هذا الدليل الواقعي خاطب اللَّه عز وجل إبراهيم عليه السلام بأنّ عليه أن يعلم يقينًا بأنّ اللَّه جل شأنه عزيز لا يغلبه ولا يعجزه شيء، وكل ما يقوم به ليس عبثًا وإنّما هو لحكمةٍ خاصة.

أخلاقيات الإنفاق

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾.

العطاء الذي يقدمه الإنسان لخدمة أو دعم أي قضية دينية مع الخلوص لوجه اللَّه سبحانه يضاعفه اللَّه سبعمائة ضعف، فهي مثل حبة شعير أو حنطة أنبتت سبعة أعواد وفي كل عود مائة حبة، فالمجموع سبعمائة لكل حبّة، بل قد يضاعف اللَّه ﷻ للمعطي أكثر من ذلك إذا كانت نيّة الإنسان المعطي أزكى وأطهر، وذلك لأنّ اللَّه واسع العطاء وعليم بنيّات عباده.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾.

ثم تبدأ الآيات وتبيّن قيم وأخلاقيات العطاء، ومنها خلوه من المنّ كأن يقول المعطي للفقير مثلاً أنا الذي أعطيتك وشبه ذلك، وخلوّه من الأذى

كأن يعيّره أو يتكبّر عليه، فالذي يعطي بلا منٍّ ولا أذى له أجرٌ عظيم عند اللَّه سبحانه وتعالى، فعدم تحديد الأجر دليلٌ على عظمته، وأيضًا لا خوف عليه في الدنيا بنقصان أمواله وافتقاره ولا في الآخرة بعذاب وشبهه، ولا يقع في الحزن وضيق النفس لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولعلّنا نفهم من ذلك أنّ العطاء من أسباب سعة الرزق والراحة النفسية.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾.

من لم يتمكّن من العطاء أو لم يرد العطاء لسببٍ معيّن فليقل لصاحب الحاجة كلمةً طيّبة كدعاءٍ وشبهه ويستر عليه ولا يشهّر به، فذلك عند اللَّه تعالى أفضل وأبعث للخير من إعطاء المحتاج وإيذائه، فاللَّه سبحانه غنيٌّ قادر أن يغني عباده وفي الوقت نفسه حليمٌ لا يعجل بمعاقبة الخاطئين وإن أساءوا في العطاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾.

وتواصل الآيات للتأكيد على مبدأ الخلوص في العطاء لتقول بأنّ الذي يعطي بمنٍّ وأذى يبطل عطاءه، لأنّه نظير من يعطي رياءً وكي يعرِّف الناس بعطائه، في حين أنّه لا يؤمن باللَّه تعالى بالمعنى الحقيقي كي يكون مخلِصًا

في عطائه له، ولا يؤمن باليوم الآخر كي يرجو ثوابًا، فمن يعطي رياءً يبطل عطاؤه ولا يجد أي أثرٍ حسنٍ له في العالم الأخروي، وقد مثَّلتْ الآية له بالحجر الأملس ويُطلَق عليه صَفْوَان الذي يكون عليه تراب فينزل عليه وابل وهو المطر الغزير فيصبح الحجر أجرد خالٍ من أيّ شيء، وذلك فإنّ هؤلاء ليس بمقدورهم الإبقاء على ما جمعوه من المال، أو ليس بمقدورهم تحصيل ثمرات ما أعطوه للناس رياءً أو منَّةً، فكلّه معرَّض للزوال، واللَّه سبحانه لا يهدي أمثال هؤلاء الكافرين للطريق الصحيح لذلك تكون أعمالهم دائمًا عديمة الفائدة.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾.

وعلى العكس من أولئك، فإنّ الذين يقدّمون العطاء طلبًا ورغبةً في رضا اللَّه سبحانه مع تجذير روح الإخلاص والإنسانية في أنفسهم وصيانتها عن الوقوع في المنّ والأذى، فمثل هؤلاء كبستان على مرتفعٍ من الأرض يهطل عليه مطرٌ غزير فيثمر ثمارًا مضاعفة، بل حتى لو لم ينزل المطر فإنّ مجرد الطل هو الرذاذ يعطي ذلك النتاج، واللَّه ﷻ يعلم من نيّات المعطين ويبصر أعمالهم ولهذا لا يمكن خداعه، وبهذا فإنّ العطاء من صاحب النفس السامية والمتعالية على الصفات الدنيئة يثمر أضعافًا، بينما العطاء من صاحب النفس القاسية الفاقدة للحس الإنساني يذهب هباءً.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾.

وهذا تمثيل توضيحي إضافي يؤكّد انتفاء أيّ منفعةٍ للعطاء مع المنِّ والأذى، فهل يحبّ أحدٌ من الناس أن يكون له بستانٌ مليء بالنخيل وشجر العنب وتجري تحت أشجاره الأنهار ويجني منها جميع أنواع الثمار، ثم إذا أصبح شيخًا عاجزًا ولديه أولادٌ ضعاف إمّا بسبب الصغر أو المرض أو الفقر تمرُّ على هذا البستان ريحٌ عاتية مشتملة على نار تلتف حول الشجر فتحرقه، هل يحبّ الإنسان ذلك؟ بالطبع لا، هذا مثال يبيّنه اللَّه سبحانه لعباده لعلّهم يتأملون ويعتبرون، فالإنسان الذي يعطي ويمنُّ ويؤذي ستحترق كل عطاءاته ولن يجد شيئًا يوم القيامة حيث يكون في أمسِّ الحاجة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾.

تواصل الآية هنا في تقديم خُلُق آخر من أخلاقيات وقيم العطاء، فيجب أن يكون العطاء من أجود ما يملكه المعطي سواءً مما حصل عليه من أرباح التجارة أو مما استخرجه من الأرض من معادن أو من ثمرات الزرع، ولذلك فالآية تنهى عن قصد واختيار الرديء مما يملكه المعطي والذي هو نفسه عادةً لا يأخذه حتى لنفسه، ولو اضطُرَّ إليه أو أراد أخذه فإنّه يأخذه بامتعاض،

ولذلك شبّهتْ الآية ذلك يمن يُغمض عينيه عند الأخذ تعبيرًا عن عدم الرغبة، وعلى الإنسان المعطي أن يعلم بأنّ اللَّه سبحانه غنيٌّ لا يبخل على عباده المعطين والمتعاونين بل يحمد لهم عطاءهم ويكافئهم عليه.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾.

والذي يخيف الإنسان من اختيار الأجود ويأمره باختيار الرديء إنّما هو الشيطان، فهو الذي يعد الإنسان ويخيفه من الفقر إذا أعطى الأجود ويحثّه على فعل الفواحش ومنها البخل، وربما يُفهم من الفواحش هنا أن من لا ينفق أمواله في الخير سيغريه الشيطان يومًا لينفقها في الحرام وارتكاب الفواحش، بينما اللَّه سبحانه يعد الإنسان ويمنّيه بالمغفرة والستر على ذنوبه في الدنيا والآخرة ويتفضّل عليه بعطاءٍ عظيم في الدنيا والآخرة مقابل ما أعطى.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

الحكمة وضع الشيء في مواضعه الصحيحة، وقد تكون الأشياء مرتبطة بفهم الدين وفقهه وقد تكون مرتبطة بفهم وإدارة الحياة، وهي أمر يمكّن اللَّه سبحانه منه بعض عباده الذين تتوفّر فيهم بعض الصفات الخاصة، ومن يُوفّق لها فقد آتاه اللَّه سبحانه خيرًا كثيرًا وفضلاً عظيمًا، وإنّما يستفيد منها أصحاب العقول العميقة، فاللَّه ﷻ هو الذي يعطي ذلك وليس الشيطان، وقد يُفهَم من سوق الآية هذه هنا أنّ الحكمة تقتضي العطاء من أجود الأشياء وبلا منٍّ أو أذى.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠)﴾.

ولبعث الاطمئنان في نفسية المعطي نصَّتْ الآية على أنّ كل شيء قليلاً كان أو كثيرًا يقدّمه الإنسان في وجوه الخير على نحو الاستحباب، أو أي نذر يكون في سبيل اللَّه بوجهٍ من الوجوه فيصبح واجبًا، يعلمه اللَّه سبحانه ولا يخفى عليه، ولذلك لا يضيع أيّ عطاء يقدّمه العبد في سبيل اللَّه، وأمّا الذين ظلموا أنفسهم فأعطوا لا من أجل اللَّه وإنّما رياءً أو بمنٍّ أو أذىً فلن يجدوا لهم أنصارًا يدعمونهم ويكافئونهم يوم القيامة، لأنّ الأمر آنئذٍ كلّه للَّه سبحانه.

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾.

وهذا خُلُقٌ آخر من أخلاقيات العطاء، فإن أعطيتم الصدقة علانيةً فنعمَ شيئًا إظهارها وإبداؤها أمام الناس، وفي الرواية هي الصدقة الواجبة أي الزكاة، وإن أعطيتموها سرًا وهي الصدقة المستحبة ففي ذلك أمران: الأول خير الدنيا والآخرة، والثاني تكفير السيئات ومحوها، وسواءً دفعها الإنسان علانيةً أو سرًا فإنّ اللَّه يخبر ذلك ويعلمه، وبالتالي فالزكاة الواجبة يستحبُّ إظهارها، والصدقة المستحبة يستحبُّ إخفاؤها.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾.

الظاهر من هذه الآية أنّ البعض أصرَّ على عدم تجسيد هذه القيم والأخلاقيات كما هو دأب المنافقين، وكان النبي ﷺ يتمنّى هدايتهم، فجاءه الخطاب من اللّه سبحانه إنّما عليك دعوتهم وحثّهم على التمسّك بالقيم، وأمّا امتثالهم فليس عليك ولا تتحمّل فيه أيّ مسؤولية، وإنّما الهداية تأتي بتوفيقٍ من اللّه سبحانه ومشيئته، مع العلم بأنّ هذه المشيئة مشروطة باتصاف العبد بشروط وميزات خاصة، مع أنّ اللّه قادر على كل شيء، فمن يشاء اللّه تعالى يهديه إلى الإنفاق بالوجه الصحيح، وبالنتيجة فإنّ ما ينفقه الإنسان بالوجه الصحيح يعود عليه بمنافع الدنيا والآخرة، مع العلم بأنّ الإنفاق بالوجه الصحيح هو الذي يكون طلبًا ورغبةً في الجهة والطريقة التي يريدها اللّه سبحانه، وإنّما يتمثّل الرضا الإلهي في امتثال القيم الثلاث المذكورة، فإذا حصل الامتثال فإنّ جميع ما يقدّمه الإنسان من عطاء سيحصل على ثمراته ومنافعه الدنيوية والأخروية بلا أيّ نقصانٍ أو ظلم.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)﴾.

تبيّن الآية فئة هامة من المستحقين والذين يمكن أن يُغفَل عنهم، وهم الذين ضاق عليهم الأمر وانحصروا بسبب الجهاد، إمّا لأنّهم من المجاهدين

ولذلك لا يستطيعون التوجّه للتجارة، أو لأنّ أمور الجهاد وتداعياته قلّلتْ من فرص طلب الرزق، ولذلك فإنّهم غير قادرين على السفر وطلب الرزق، إلاّ أنّهم متعفّفون مع حاجتهم الشديدة، لدرجة أنّ الجاهل بحالهم وغير الخبير بأمرهم يتصوّر أنّهم أغنياء من شدّة تعفّفهم، ولكن مع ذلك يمكن معرفتهم من مظاهرهم كثيابهم الرثّة وطعامهم الرديء أو القليل، ومن كبريائهم وطيب أخلاقهم لا يلحّون في السؤال والاستجداء، فمن يتوجّه لهؤلاء وينفق عليهم فإنّ اللّه عليم بعطائه وسيثيبه عليه.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾.

نزلت في الإمام علي عليه السلام لأنّه كان يملك أربعة دراهم فتصدّق بواحدٍ ليلاً وبآخر نهارًا وبثالثٍ سرًّا وبالرابع علانيةً، وفي ذلك حثٌّ لسائر المؤمنين للتأسّي بالإمام عليه السلام، فإنّ من يفعل ذلك له أجرٌ عظيم عند اللّه سبحانه، فعدم تعيين الأجر دليلٌ على عظمته لأنّه من عظيم، ولا خوفٌ يترقبهم لا في الدنيا من الفقر مثلاً ولا في الآخرة من العذاب أو عدم الإنصاف والوفاء، كما لا يعتريهم حزنٌ ولا ضيق نفسي في الدارين، وإلى هنا تنتهي الآيات المتعلقة بقيم وأخلاقيات العطاء والإنفاق.

أحكام الربا

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾.

لعل استعمال لفظ الأكل وليس مجرد الأخذ للإشارة إلى استعمال مال الربا في سائر احتياجات الإنسان في الحياة ومن أجلى مصاديقها الأكل، فهم لا يجمعون مال الربا فقط وإنّما يبنون به حياتهم، والربا هو الزيادة غير المشروعة كربا القرض وربا البيع، فالآية هنا تشبّه من يفعل ذلك بمن يأكل بِشَرَهٍ حتى يمتلئ فيؤثّر ذلك على توازنه، لهذا إذا قام يقوم ويمشي مثل المتخبِّط أي بلا توازن، مثله مثل المصروع الذي مسَّه الشيطان فأحدث عنده حالة من التخبّط والصرع، ما يعني أنّ قيامه بأعماله في الحياة يكون على غير توازن، فكثرة مثل هذه الأموال الناتجة عن الربا غير ناجعة. وتمثيل القرآن بالممسوس ليس إقرارًا بصحّة حصول المس وإنّما هو استعمال لأمر مُتصَوَّر عند الناس لتقريب الصورة واللَّه العالم.

وقيل بأنّ القيام هنا قيام يوم القيامة، وليس بمستبعد بلحاظ أنّه نتيجة للتخبّط في الدنيا، وإنّما حصل لهم ذلك لا لأنّهم اشتبهوا أو كانوا جاهلين بالحكم وإنّما لأنّهم افتروا عمدًا على اللَّه سبحانه وزعموا بأنّ البيع الحلال مثله مثل الربا وبالتالي فالربا حلال، لكن الحقيقة أنّ اللَّه أحلَّ البيع وحرَّم الربا وهم يعلمون بذلك، وبناءً عليه فمن وصله هذا الحكم وهذا الوعظ فتوقف عن أخذ الربا، فما اشتبه عليه من أموال الربا السابقة فهي حلال، ومع ذلك فإنّ أمر الجاهل يعود إلى اللَّه ﷻ يوم القيامة فيحكم في شأنه وذلك دليلٌ على الحرمة المغلَّظة للربا، وأمّا من عاد إلى أخذ الربا حتى بعد الموعظة فمآله إلى النار والخلود فيها.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾.

وعلى خلاف ما يتصوّر المرابي فإنّ اللَّه ﷻ ينقص مال الربا وينفي البركة عنه، بينما الصدقة ينمّيها ويزيدها كما أنّه سبحانه لا يحب ولا يثيب المرابي لأنّه مبالغٌ في الكفر العملي وليس العقدي وعظيم وكثير الآثام، وذلك إظهار لعظمة المعصية في أخذ الربا، ولهذا ذُكِرَتْ الصفتان بصيغة المبالغة ﴿كَفَّارٍ﴾ و﴿أَثِيمٍ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾.

وعلى العكس من الذين يأخذون الربا، فإنّ الذين آمنوا وأطاعوا أوامر

اللَّه سبحانه وأحكامه ومنها الأحكام المتعلّقة بحرمة الربا، ثم التزموا بذلك في حياتهم وعملوا الأمور الحسنة والصالحة مع التزامهم بإقامة الصلاة بوجهها الصحيح لا مجرد الإتيان بها وواظبوا على إيصال الزكاة إلى أهلها، فلهم أجرٌ عظيم عند اللَّه سبحانه ولا يصيبهم خوفٌ ولا حزن بالمعنى الذي سبق بيانه في الآية (٢٧٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾.

وكنتيجة للمقارنة بين النوعين من الناس توجّه الأمر الإلهي إلى المؤمنين بأن يتقوا اللَّه ويخافوه من خلال التزامهم بأحكامه ومنها ترك الأموال الربوية، فحتى لو كانت لهم بقايا من أموال الربا عند البعض فيجب أن لا يأخذوها إن كانوا معتقدين ومؤمنين باللَّه ﷻ حقًّا وبما أنزل من أحكام.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾.

ومن لم يلتزم بذلك فليعلم بشنِّ حربٍ عليه من قِبَل اللَّه تعالى ورسوله ﷺ، لأنّ أخذ الربا هو في الحقيقة إعلان حرب عليهما، ولهذا من الطبيعي أن يكون ردُّ الفعلِ منهما حربًا دفاعية أو عقابية، وأمّا من تاب وتوقف عن أخذ الربا فمن حقّه أن يأخذ رأس ماله فقط ويرد الفائض الربوي إلى أصحابه، فلا يظلِم ولا يُظلَم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾.

وإن كان لكم دَيْن على أحدٍ وكان معسِرًا وغير متمكّنٍ فعلاً من الأداء فالحكم الشرعي هنا أن تنتظروا عليه إلى أن تتيسّر أموره، وإن تتصدّقوا عليه بالتنازل عن حقّكم فهو أفضل ومستحب وفيه خيرٌ عظيم لكم عند اللّه سبحانه، وفي الرواية عن الصادق عليه السلام أنّ قوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون أنّه معسرٌ فتصدّقوا عليه فإنّه خيرٌ لكم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

وهذه الآية آخر آية نزلت من القرآن فأمر النبي صلى الله عليه وآله أن تُوضع في هذا المكان.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: تأهّبوا ليوم الرجوع إلى اللّه وهو يوم الحساب واحذروه ففيه سينال كلُّ إنسانٍ جزاء ما عمله وتحمّله بعدالةٍ تامّة تنتفي فيها جميع صور الظلم، وبهذا ينتهي الحديث عن الربا.

كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾.

إذا استدان شخصٌ من آخر مبلغًا ما مثلاً إلى مدّةٍ معيّنة كسنة فإنّه يستحبُّ توثيقه وكتابته، ولا بد أن يكون الكاتب عادلاً في كتابته فلا يزيد ولا ينقص، ولا يرفض ويمتنع أيّ كاتبٍ من أن يكتب طبقًا للموازين الدينية التي

شرَّعها اللَّه سبحانه. وينبغي أن يملي المديون على الكاتب بصدق مراعيًا الشرط الشرعي ومدركًا للرقابة الإلهية فلا ينقص من الدين شيئًا كأن يملي تسعين بدل المائة. ولو كان المديون سفيهًا محجورًا عليه بسبب الجهالة وضعف العقل، أو كان ضعيفًا لمرضٍ أو شيخوخة أو صغر سن، أو غير قادر على الإملاء لعدم ضبطه أو لانشغاله بأمرٍ ما وشبه ذلك، فإنّ وليّه يقوم مقامه كالأب أو الجد الأبوي أو الحاكم الشرعي أو من يولّيه الحاكم الشرعي.

وكي تكون الكتابة موثّقة وحجّة لا بد من شهادة رجلين مسلمين عادلين عليها، فإن لم يوجَد رجلان فرجلٌ واحد وامرأتان ممّن تكونا محل ثقة، والسبب في اشتراط المرأتين لو اشتبهت أو نسيت لأي سبب إحداهما فإن الأخرى تذكّرها. ولو دُعي أحد كي يكون شاهدًا فلا ينبغي له الامتناع، وذلك قبل الشهادة كما في الرواية، وينبغي تجنّب التكاسل والتململ عند الكتابة بل لا بد من التوجّه والتدقيق في الكتابة بحيث تشمل الصغير والكبير وتحديد الأجل.

وجميع هذه الشروط والضوابط إنّما تأتي ويؤكَّد عليها لأمورٍ وعلل ثلاث: الأولى أنّها عند اللَّه سبحانه أقرب للعدالة والقسط، والثانية أنّها أثبت وأصدق طريقة لثبوت الشهادة، فإنّ رؤية الشاهد لإمضائه ورؤية الآخرين له أقوى حجة على حصول الشهادة فعلاً وثبوت الدَين، والثالثة أنّها أقرب طريقة تنفي الريب، لأنّ الكتابة بخط اليد إثباتٌ قوي، بعكس ما لو كان الإشهاد لفظيًا فقد يشكِّك الشاهد فيما قاله لو لم يكتبه.

لكل ذلك لا بد من الشهادة في الديون، وأمّا في أمور التجارة والبيع والشراء فيصحّ عدم الكتابة. والمراد بإدارة التجارة الحاضرة، أن الإدارة بمعنى التبادل والأخذ والعطاء، والحضور بمعنى فعلية البيع بحيث يحصل

التبادل يدًا بيد في مكانٍ واحد وفي الوقت نفسه، ففي مثل هذه الصورة لا مانع من عدم الكتابة، ولكن ينبغي الإشهاد عند التبايع ليكون ذلك أثبت للحجّة بخصوص النقل والانتقال والتمليك والتملّك.

ولا يجوز الإضرار من قبل أصحاب الشأن لا بالكاتب ولا بالشاهد، لأنّهما لا يتحمّلان أيّ مسؤولية بل هما مجرد مُثبِتَين لواقعة الاستدانة أو البيع، ولو فعل أحدٌ وأضرَّ بهما فإنّه تعدٍّ وتجاوز لما شرّعه اللَّه سبحانه في معاملات الناس مع بعضهم البعض، ولهذا يجب على الجميع أن يخشوا اللَّه سبحانه ويراقبوه في مثل هذه الأمور فيمتثلون لشرائعه ولا يتلاعبون أو يتسيّبون فيها أو يشوّهونها بأذواقهم وأهوائهم، لأنّها علمٌ من اللَّه سبحانه يعلِّم به عباده وهو العالم بحقائق الأمور وأبعادها جميعًا وبلا استثناء.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

ولو كانت عملية الاستدانة في حالة سفر ولم يجد الدائن والمدين كاتبًا للتدوين، فبإمكان المدين أن يقبِّضَ الدائن عينًا كدابة أو ذهب أو غير ذلك لتكون عنده رهنًا، وإنّما ذُكِرتْ صفة القبض لاشتراط القبض في صحّة الرهن، ولو أنّ الدائن وثق في المدين وأمِنَه فيسعه أن لا يشترط أو يأخذ رهنًا بل يعطيه ثقةً به، وفي هذه الحال على المدين أن يكون عند حسن الظن فيرد الدين والأمانة إلى صاحبهما في الأجل المحدّد، وليخشَ من اللَّه تعالى ويحذر فإنّه رقيبٌ عليه في هذا الشأن، وبالتالي لا يمكن التلاعب في الأمانة وإنّما عليه أن يردّها كاملةً.

وقد جمعت الآية بين لفظ الجلالة والرب مع إمكان الاستغناء بأحدهما للتأكيد على أنّ المغني الفعلي والمعطي إنّما هو اللّه سبحانه، وينبغي للمدين أن يطمع في عطاء ربّه وهذا يغنيه عن الحاجة إلى الدائن وغيره.

ثم انتقلت الآية للتأكيد على حرمة كتمان الشهادة ووجوب إبدائها، فإنّ من كتمها ولم يظهرها فإنّ قلبه آثِمٌ وعاصٍ، وإنّما ذُكر القلب لأنّه الآمر بالإثم ولهذا جاءت آثمٌ بصيغة اسم الفاعل، ولا يمكن التمويه والتلاعب في الشهادة لأنّ اللّه ﷻ عالمٌ بدقائق ما يفعله العباد ويقومون به في حياتهم.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾.

اللّه جلّ شأنه هو المالك لجميع ما في السماوات والأرض، فهو الموجِد للوجود وهو المالك له. هذا اعتقاد يجب أن يعتقد به الإنسان قلبًا وليس عملاً فقط، ولهذا فإنّ الإنسان يُحاسَب على ما أضمره قلبه من اعتقاد فيُثاب ويُعاقب، وهذا أمرٌ خاص بالاعتقادات الدينية الكبرى كالتوحيد والنبوّة ولا يشمل الأمور العملية والتشريعات التفصيلية التي يُكتفى فيها بالالتزام العملي، بالتالي فسواءً أظهر الإنسان اعتقاده أو أضمره فهو موضوعٌ للمساءلة من قِبَل اللّه ﷻ، فيعفو ويستر على البعض بمقتضى حكمةٍ يراها، ويعاقب ويعذّب آخرين لحكمةٍ أخرى، وكل ذلك راجعٌ لطبيعة الظروف والشروط المحيطة بكلٍّ منهم، فاللّه سبحانه قادرٌ على كل شيء، فهو قادرٌ على معرفة ما في قلوب عباده وإن لم يظهروه، وله صلاحية محاسبتهم عليه فهو خالقهم ومالكهم كما ذكرت الآية ذلك في الصدر.

موارد الاعتقاد والملامح العامة للتشريع

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾.

هذه الآية فَصَّلَتْ موارد الاعتقاد التي يجب التسليم والتصديق بها قلبًا، وهي طبقًا لما آمن به الرسول ﷺ وصدَّق به وسائر المؤمنين، وهي اعتقادات فرضها اللَّه ﷻ على عباده، أولها الاعتقاد بوجود اللَّه سبحانه ووحدانيته، ثم الاعتقاد بالملائكة كوسائط للَّه تعالى مع أنبيائه ومدبّرين لإرادة اللَّه في الكون والخلائق، والاعتقاد بالكتب السماوية الموحاة وأنّها الحاوية على الأحكام والتعاليم، ثم الاعتقاد بالرسل جميعًا فهم وسائط اللَّه مع خلقه بلا فرقٍ أو تمييز بين واحدٍ وآخر، وأخيرًا الإقرار بوصول الأحكام والتعاليم السماوية عبر الرسل لأنّ الرسل لا يفرّطون في الإيصال، والطاعة والتسليم النظري والعملي بتلك القيم والتعاليم، وطلب الستر من اللَّه تعالى لأنّ الإنسان قد يقصّر شيئًا ما في الالتزام العملي أو الاعتقاد النظري، ويختم المؤمن إقراره بالمعاد وأنّ الرجوع إنّما يكون للَّه ﷻ.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

وبعد الحديث عن العقائد تنعطف الآية الأخيرة نحو الملامح العامة للأحكام والتشريعات، وأوّلها أنّ اللّه سبحانه لا يكلّف أحدًا إلاّ ما يسَعُه ويتيسّر له، فكل التكاليف ممكنة ومتيسّرة للإنسان، وذلك يفيد لو أنّ تكليفًا ما أصبح غير يسير وغير ممكن لشخصٍ ما في آنٍ من الآنات لارتفع التكليف عنه، وهكذا لو أصبح كذلك على المستوى الإنساني ككل لأسبابٍ معيّنة شائعة فإنّه يصبح غير ملزِم.

وبناءً على هذه الميزة الأولى للأحكام فإنّ لكل إنسانٍ ما كَسَبَ من الخير، فكل عملٍ يعمله الإنسان من الخير يُثاب عليه، وعلى كل إنسانٍ ما اكتسب من الشر، فكل عملٍ فيه شر يعمله الإنسان يُعاقب عليه، والفرق بين الكسب والاكتساب أنّ الأول لا يحتاج إلى مزيد جهدٍ كبير بينما الثاني يتطلّب مبالغة في العمل والجهد، فزيادة المبنى تفضي إلى زيادة المعنى، ما يعني أنّ فعل الخير يسير والحصول على الثواب لا يحتاج لمزيد كفلة، وهذا أحد إشراقات اليُسر في الأحكام الشرعية، بينما فعل الشر المستوجب للعقاب يتطلّب عناية ومبالغة وتكلّف.

ومن الملامح الأخرى للأحكام أنّ النسيان فيها والخطأ مُغتفران، كما أنّها خالية من كل أشكال المشقة، فهي ليست ثقيلة ولا شاقة بالشكل الذي

يقيّد الإنسان ويحبسه عند الإتيان بها، كالتكاليف التي فُرِضَتْ على الأمم السابقة والتي هي قياسًا لنا نحن الآن تكون شاقة بينما بالنسبة لهم كانت متناسبة مع قابلياتهم وظروفهم وقدرتهم على التحمّل، ولعل الآية تشمل التكاليف الشاقة التي جاءت نتيجة للعناد وكثرة السؤال عند البعض من أبناء الأمم السابقة، كالبقرة التي أُمِرُوا بذبحها، فالتكليف بالنسبة لهم أصبح شاقًا لعدم امتثالهم وكثرة سؤالهم ولجاجتهم، وإلاّ فالتكاليف الإلهية لجميع الأمم في الأصل غير شاقة.

ومن الملامح أيضًا أنّها خالية من أي تكليف يكون فوق طاقة الإنسان، وهو أعلى رتبة من الإصر، لأنّ الإصر عبارة عن مشقّة ولكنّها مقدورٌ عليها وتتحملها طاقة الإنسان، بينما الثاني فوق طاقته.

والفارق بين قوله سبحانه ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وبين ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أنّ الأول يعني اليُسر في التكليف وما تيسّر للإنسان فعله والذي لا حرج فيه، بينما الثاني يعني ما كان فوق طاقة الإنسان العادي، والاختلاف بين الاثنين واضح، فقد يكون هناك تكليف غير يسير وفيه عسر وحرج ومشقّة أيضًا لكنّه مع ذلك لا يكون فوق طاقة الإنسان.

ومع أنّ التكاليف الشرعية بهذه الميزات وبهذا المستوى من اليسر إلاّ أنّ الإنسان قد يتجاوز ويخطئ أحيانًا، ومع ذلك فالرحمة الإلهية واسعة، لهذا نصَّت الآية بعد ذلك على طلب العفو والصفح عن الذنب، ثم المغفرة والستر، ثم التفضّل من اللَّه سبحانه على العبد بالرحمة ودوام النعم والعطاء.

كما أنّ الالتزام بالأحكام يحتاج إلى صبرٍ وتحدٍّ وتغلّب على الظروف المعاكسة خاصة ما تصنعه القوى المتربّصة بالدين، ولهذا يحتاج الإنسان إلى إرادة وطاقة وتأييد ليتفوّق على تلك الظروف ولا ينفعل بها. في هذا السياق

خُتِمَتْ الآية بطلب التوفيق والنصرة من اللَّه سبحانه، فاللَّه سبحانه هو المولى والسيد والحاكم وهو القادر على تأييد عباده ليتفوّقوا على كل تلك الأجواء المعاكسة التي تصنعها الجهات المتربّصة بالدين عن عمدٍ واختيار.

المحتويات

إهداء ٧
مقدمة ٩
الحروف المقطَّعة ١١
معايير الإيمان وآثاره ١٣
خداع الذات والمجتمع ١٥
مقارنة بين الإيمان والكفر ٢١
قضية آدم بين التسليم والجحود ٢٧
نموذج العناد والتقلّب الفكري ٣١
البقرة: دليل واقعي ويُسْرٌ في الدين ٤٣
بين المصلحة الذاتية والجدل العقيم ٤٩
لا للوهم بل للإرادة الإلهية ٦٣
قيم وتعاليم للسلوك الإيماني ٦٥
ملة إبراهيم عليه السلام ٧٩
من تشريعات المسجد الحرام ٧٩
بماذا دعا إبراهيم عند بناء الكعبة؟ ٨٢
القبلة الشريفة ٩١
سجايا المرء المؤمن ٩٩

الإفصاح عن الحق ١٠٣
التوحيد وتجلياته ١٠٧
وصايا اجتماعية للمجتمع المؤمن ١١٧
تشريع الصيام..... ١٢١
أخلاقيات الدفاع عن النفس ١٢٩
تشريع الحج..... ١٣٥
نموذجان للحق والباطل..... ١٤٣
يسألونك عن أحكام الله..... ١٤٩
أحكام للحياة الزوجية ١٥٥
قائد شجاع لإدارة التحولات ١٧١
آية الكرسي..... ١٨١
الأنبياء والأدلة والواقعية..... ١٨٥
أخلاقيات الإنفاق ١٨٩
أحكام الربا..... ١٩٧
كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه ٢٠١
موارد الاعتقاد والملامح العامة للتشريع ٢٠٥
المحتويات..... ٢٠٩